الدكتور إحسان عبّاس

دراسة في الرحّالة ابن جبير الأندلسي البلنسي الكناني

وآثاره الشعريّة والنثريّة

اهداءات ٢٠٠٣
دار الغرب الإسلامي
بيروت

دراسة في الرحالة

ابن جبير الأندلسي البلنسي الكناني

الدكتور إحسان عبّاس

دراسة في الرحّالة ابن جبير الأندلسي البلنسي الكناني

وآثاره الشعريّة والنّثريّة



الطبعة الأولى

دار الغرب الإسلامي
ص . ب . 5787-113 بيروت

الإهـداء

إلى الرجل الصالح الورع.

إلى الصديق الذي أحببت فيه إخلاصه ونقاء سريرته وصفاء نفسه، إلى صاحب دار الغرب الإسلامي للنشر (في بيروت)

إلى أخي الحاج الحبيب اللمسي، حفظه الله سالماً معافى، ووفقه في كل أعماله.

إحسان عباس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

منذ بضعة أشهر دعتني مؤسسة بريطانية تزمع أن تقوم بتنفيذ مشروع موسوعة علمية ضخمة تتناول «أدب الرحلة والاستكشاف» لدى شتى الأمم والحضارات، على مدى التاريخ الإنساني، وكلفتني بالكتابة عن عدد من الرحالين والجغرافيين العرب، ووجدت في المشروع إغراءً خاصاً من الناحية العلمية، إذ كنت أدري يقيناً أنني قضيت من عمري فترة طويلة في صحبة الرحالة والجغرافيين، وكانت الرحلات وكتب الجغرافيا هي المجال الذي أسعى إليه دائماً كلما أحسست بالحنين إلى توسيع المكان وتنوعه أمام خيالي، ولكن بعد تأملٍ طويل قررت أن أعتذر عن المشاركة في هذا العمل الكبير، معتمداً على أنني أصبحت في سنٍّ لا تسمح لي بالخوض الواثق في عالم المصادر، وأن المؤسسة المشكورة على ثقتها في شخصي الضعيف لم تعلم أن الزمن قد عبث بقدرتي وذاكرتي، بل وبثقتي في نفسي، ولعلّها أن تكلف شخصاً أكفأ مني لتحقيق ذلك الجانب من المشروع.

أقول: لم تكن دعوة تلك المؤسسة هي العامل الوحيد الذي

ذكّرني بابن جبير، وبرحلته، بل كان ابن جبير يرافقني دائماً وكانت رحلته مجال قراءة متجددة، فإذا أنا أقبلت اليوم على دراسة ابن جبير وجمع شعره ونثره، والغوص من جديد في رحلته، فما ذلك إلاّ وفاءً بدين لرجلٍ علّمني كيف يكون الربط الوثيق بين ثقافتي المشرق والمغرب الإسلاميين، وإذا كان هو قد هامَ في المشرق فأنا وجدت في المغرب ـ وفي الأندلس بالذات ـ حضارة إنسانية جميلة عشتُ بها ولها، أجمل سنوات عمري.

عمّان في أوائل تموز (يوليه) 2000 م.

إحسان عباس

مصادر لدراسة ابن جبير وشعره ونثره:

I ـ المصادر الأندلسية والمغربية.

1 ـ التكملة لابن الأبار، محمد بن عبدالله (2:598) نشر عزة العطار، القاهرة، 1956.

2 ـ الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (5:595 ـ 621)، ت: إحسان عباس، بيروت، د.ت.

3 ـ الذيل والتكملة لابن عبد الملك (6: في ترجمة ابن رشد 30 ـ 31) ت: إحسان عباس، بيروت 1973.

4 ـ أعلام مالقة لابن عسكر وابن خميس (ص 138 ـ 149) ت: د. عبدالله المرابطي، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1999.

5 ـ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (2 ـ 384): ت: د. شوقي ضيف، القاهرة 1955.

6 ـ الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (2:230 ـ 239) ت: محمد عبدالله عنان، القاهرة 1974.

7 ـ رحلة العبدري (نسخة ليدن رقم: 29 في مقدمة الرحلة وت: محمد الفاسي، الرباط 1968.

8 ـ نفح الطيب للمقري، أحمد بن محمد (2:381، 383، 485) ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968.

9 ـ زاد المسافر لأبي البحر صفوان بن إدريس في كتاب «أديب

الأندلس أبو بحر التجيبي» دراسة وجمع الأستاذ الدكتور محمد بنشريفة (ص: 328 ـ 329) الترجمة رقم: 34 ط. أولى 1999 (الدار البيضاء).

10 ـ جذوة الاقتباس لابن القاضي المكناسي (ص: 277 ـ 280) الرباط 1973.

11 ـ رحلة ابن جبير، ت: وليم رايت ومراجعة دي خويه (1907) ليدن (وقد جمع المحقق في مقدمة الرحلة ترجمة ابن جبير في المصادر 6، 7، 8).

II ـ المصادر المشرقية: هي عالة على المصادر الأندلسية، قلَّما تهتم بشعره ونثره.

يستثنى من ذلك قلائد الجمان فإنه نقل أخباراً وأدباً عمن لقوا ابن جبير.

12 ـ المقفَّى الكبير للمقريزي، تقي الدين (152:5) ت: د. محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1991.

13 ـ غاية النهاية في طبقات القرّاء للجزري، شمس الدين (2، 60) ت: برجشتراسر، القاهرة 1933.

14 ـ سير أعلام النبلاء للذهبي، شمس الدين (45:22) ت: د. بشار عواد معروف، ود. محيـي الدين سرحان، بيروت 1985.

15 ـ العبر في خبر من غبر للذهبي (51:5) ت: د. صلاح الدين المنجد، الكويت 1966.

16 ـ الإعلام بوفيات الأعلام للذهبي، ت: رياض مراد وعبد الجبار زكار، دار الفكر، بيروت 1991.

17 ـ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (221:6) ط. دار الكتب المصرية.

18 ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (ص: 60 ـ 61).

19 ـ قلائد الجمان لابن الشعار 125:6 ـ 133 (معهد تاريخ العلوم ـ فرانكفورت 1990).

III ـ مراجع عربية ومعرّبة وبغير العربية.

١ ـ تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس للدكتور حسين مؤنس، مدريد 1967.

2 ـ كراتشكوفسكي (ترجمة صلاح الدين هاشم) تاريخ الأدب الجغرافي العربي (332 ـ 336)، دار الغرب الإسلامي 1987.

3 ـ Pellat, ch.: Ibn Djubayr in EI_2 Vol.III p. 755.

4 ـ Brockelmann, GAL, SI, p. 879.

وقد تكرّم صديقي أ.د. عبد الجليل عبد المهدي فأطلعني على أربعة أعمال عن ابن جبير ورحلته، وهي:

1 ـ ابن جبير شاعراً لمنجد مصطفى بهجت، في مجلة آداب الرافدين (9) 1978.

2 ـ شعر ابن جبير لفوزي الخطبا، دار الينابيع، عمان 1991.

3 ـ مع ابن جبير في رحلته، لعبد القدوس الأنصاري 1977.

4 ـ ديوان الرحالة ابن جبير، جمع وتحقيق د. منجد مصطفى بهجت، دار الرفاعي ـ الرياض، 1490.

وقد أفدت منها، فشكراً للدكتور ع. عبد المهدي.

دراسة في حياة ابن جبير
وآثاره الشعرية والنثرية
540 ـ 614/1145 ـ 1217

1 ـ حياة ابن جبير :

ولد محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي، في مدينة بلنسية، ليلة السبت عاشر ربيع الأول من السنة المذكورة لأسرة عربية مضرية نزلت منطقة شذونة، وكان أول داخل منها إلى الأندلس هو جده الأعلى عبد السلام بن جبير، وكان في طالعة بلج حوالي عام 123. ويتردد اسم جبير في سلسلة نسبه خمس مرات. ولا نعرف شيئاً عن نشأته الأولى، ولكن يبدو أن والده انتقل لدى بداية الدولة الموحدية وأصبح كاتباً لولاة الموحدين في شاطبة؛ وكان والده أول من درّبه في الشؤون المعرفية وفي الكتابة وحسن الخطّ حتى أصبح مع الزمن يرشح نفسه كاتباً في دواوين الدولة، ولكنه كان بحاجة إلى ثقافة إسلامية تشمل اللغة والنحو والعكوف على تلاوة القرآن بالقراءات المشهورة، وشيء من الحديث والفقه. وقد مكّنه تنّقله في المدن الأندلسية من لقاء الشيوخ ومن الحصول على الإجازات منهم، والأخذ عنهم، فروى

بالأندلس عن ابن أبي العيش وابن الأصيلي وابن عروس وغيرهم كثيرين. وكانت هذه هي الحلقة الأولى في توسيع ثقافته، ولكن القدر كان يخبيء له الانتقال ـ عن طريق الرحلة ـ إلى حلقة ثقافية أوسع. وقد كفل له تردده إلى مصر والشام والعراق والحجاز لقاء عدد غير قليل من علماء هذه البلاد ومن العلماء الوافدين عليها من أقطار العالم الإسلامي الأخرى.

واستأثرت غرناطة بين المدن الأندلسية بمحبته، إذ أصبح فيها كاتباً لدى أميرها الموحدي أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن، وكان شوقه إلى رؤية البلاد المشرقية وعلماء المشرق، وزيارة الأماكن المقدّسة، شوقاً يستبد بنفسه ويوجه عزمه ـ ولكنه كان بحاجة إلى عامل يفجره وينقله من حيز الأمنية إلى حيز الفعل.

وفي لحظة من اللحظات أراد الوالي أبو سعيد أن يتبسط مع كاتبه، فقدَّم إليه كأساً من الخمر، فما كان من الكاتب إلاّ أن أبعدها عن متناول يده، ولم يلبث العرض أن دخل مرحلة الإصرار من الطرفين: الوالي يريد أن يتحقق ما أصبح يعده أمراً، والكاتب يتشبث بأنه لا يسمح لنفسه بشرب ما هو محرّم. وأخيراً نفذ أمر الآمر القوي، ولأول مرة في حياة الكاتب يواقع الإثم حين لم ينفعه إصراره على استبعاده عن يده وفمه.

لقد أخطأ الوالي مرتين: مرة لأنه ـ رغم طول المعرفة ـ لم يحاول أن يفهم طبيعة كاتبه، ومرة حين أقدم ـ وهو ابن عبد المؤمن، ووريث دولة حريصة على الالتزام بالتدين ـ أقدم على ما يعده كاتبه وكثيرون حوله تحدّياً لا ضرورة به إليه.

هذه الحادثة فجَّرت لدى الكاتب ابن جبير عزمه على أن يغسل الإثم الذي وقع فيه. كان طول حياته مسكوناً بحب النبي ﷺ، وحب الديار المقدّسة التي سطع فيها نور الإسلام، لم يكن واحداً من «المغاربة» الذين يتوقون إلى الحج لأنه ركن من أركان الإسلام وحسب بل كان يحدوه الشوق الذي لا يحسب حساباً للمشقة لرؤية الحرمين، وقراءة الفاتحة وتلاوة الأدعية عند قبر الرسول الكريم وصاحبيه، ورؤية المواطن الجغرافية التي خلدت بذكرى بدر وأُحد، ويجد البركة في استعادة تلك النهضة الشاملة التي جمعت شمل أمة، حملت على عاتقها نشر الإسلام في أرجاء الكون.

إن ابن جبير اشتعل قلبه بالشوق من تلك اللحظة، فظل يتصيد الفرص حتى وجد سفينة تقلّه من جنوب الأندلس إلى ما يكفل له الوصول إلى جدّة، وكانت تلك هي رحلته الأولى التي قام بها سنة 578، وقد لقي فيها من المشاق في الذهاب والإياب ما يحول بينه وبن الإقدام على مثل هذه التجربة مرة بل مرتين، وهذا وحده دليلٌ على أن عمق محبته لمسارح الإسلام الأولى هو الذي شجعه على عدم الالتفات إلى ما يعترضه من صعاب. تلك هي الرحلة الأولى التي كتب كتاباً عنها، ووصف مراحلها بتفصيل. وسوف أوليها الحديث في ما يلي. وقد أتاحت له لقاء كثير من علماء مصر والشام والحجاز من المقيمين والوافدين وزادت ثقته في إتقان العلوم الإسلامية، وعرَّفته بحياة المجتمعات الإسلامية في الشرق الأدنى وعاداتها، ومساجدها ومزاراتها،

ومعالمها الكبرى، ومشاهدها الجميلة، وآثارها النبيلة.

كان عمر ابن جبير حين قام برحلته هذه في حدود ثماني وثلاثين سنة؛ كان رجلاً قد حَلَّمته التجارب، وتجاوز عهد الشباب، وانتحل مبادىء وقيماً لا يستطيع التخلي عنها، وكوّن لنفسه علاقات وصداقات، وطبعته الأندلس ببعض طوابعها؛ كان قد أصبح ذا جاهٍ يستطيع أن يخدم الناس بجاهه، ويسعى في قضاء مصالحهم على أن لا تجور تلك المصالح على مصالح أناس آخرين، وقد عرف بورعٍ لا مجال فيه لرياء أو حبّ سمعة، ولكنه على الرغم من هذه الميول الأصيلة كان لا يزال يعيش عيشاً يبعده عن الزهد، كانت وظيفته تدر عليه دخلاً يمكّنه من أن يعيش عيشة يسرٍ وبحبوحة، ولكنه في لحظة حاسمة، قرّر أن ينحاز إلى جانب الزهد، وأن يعيش عيش الزاهدين، وأن يستغني عن خدمة الدولة والسلطان. وأن يقترب في المسلك العام من صديقه الزاهد أبي عمران الميرتلّي، الذي كان أكثر منه نجاحاً في منهج الزهد؛ وكان زهده يقرّبه إلى التصوّف، إلاّ أنه كان تصوفاً هادئاً، مؤسساً على الورع والتقوى والاتزان، مع تقديم العون الممكن للآخرين. ولعلَّ أهمّ سمة من التصوف علقت بنفسه هي «حبّ السماع» ـ أي سماع الأغاني والأناشيد، كما تدل على ذلك بقية القصيدة (رقم: 7) حيث تتجلّى أندلسيته في حبّ الغناء، يقول فيها:

ومن لم يحرّكه السماع بطيبة   فذلك أعمى القلب أعمى التصور

وهو يدافع عن هذا الموقف بأنّ أهل المدينة بخاصة وأهل الحجاز بعامة قد أقبلوا على الغناء منذ القرن الأول الهجري، وأنّ أهل

التصوف هاموا به للتشويق، وأن النبي ﷺ قال ما معناه: «زيّنوا بأصواتكم آي الكتاب».

وفي (11 شعبان 570) زفّت إليه في مدينة جيان: عاتكة أم المجد ابنة الوزير الحسيب أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقّشي، فكان زواجاً ناجحاً، لأنه وصل بين كفؤين، ربط بينهما الحبّ، والاحترام المتبادل، ورعاية الحقوق،، وقد تجسدت بركة هذا الزواج في حياة هانئة وادعة. زادت من حمد ابن جبير لله تعالى، على ما حباه من توفيق، في ظلِّ الحياة الزوجية السعيدة، ومحبة الاستقرار والهدوء والرضى بما كان.

لكنه بعد هذا الزواج بخمسة عشر عاماً سمح لنفسه أن يفارق أم المجد، وأن يقوم برحلة جديدة يجدد فيها عهده بالأماكن المقدّسة. إذ أن نبأً مفرحاً ملأ صدره بالسرور، وساعده في التغلب على مفارقة «القرين الصالح» كما كان يقول إذا تحدث عن عاتكة. أمّا ذلك النبأ الجليل فهو انتصار صلاح الدين على الفرنجة في حطين واستعادة القدس إلى حوزة الإسلام سنة (583) هذا ما تصرّح به الأخبار، ولكني أعتقد أن هناك سبباً شخصياً آخر كان يحفزه إلى الرحلة، وهو: شكر الله تعالى بزيارة بيته ونبيه على ما وهبه من نعمة السعادة العائلية، فأنا أقدّر أن أمّ المجد كانت هي التي أنجبت له «أحمد» الذي توفي في حياة أبيه، ولعلّها أنجبت له غيره من البنين والبنات، سكتت المصادر عن ذكرهم. وقد يسأل سائل: لماذا لم يصطحبها معه؟ لقد كانت امرأة رقيقة لا تتحمل المشقة التي واجهته في رحلته الأولى، كما أنها بعد كل تلك

السنين قد بدأ لديها مرض تطاول من بعد حتى غدا مزمناً وأقعدها وطاولها حتى سنة 601 هـ/ 1204، ومما لفت نظر زوجها حين فقدها أنها توفيت في نفس اليوم الذي زفت إليه فيه، أي (10 ـ11 شعبان) من ذلك العام. وكان فقد «القرين الصالح» يستدعي التعزّي، فلم يجد ما يعزيه عنها مثل العودة إلى الديار المقدّسة، والانخراط بين جموع الحجاج لكي يضيع حزنه النفسي الصامت بين هدير تلك الجموع، ويمتزج ذلك بالدعاء لها وطلب الرحمة والغفران. كانت هي تلك رحلته الثالثة وقد بدأها من سبتة حيث كان يسكن في أواخر حياته. ولم تكتب له العودة إلى سبتة أو إلى غرناطة بعد تلك الرحلة. بل توفي في الإسكندرية ودفن بها في السنة المذكورة (في صدر البحث) ليلة الأربعاء 29 شعبان سنة 614 هـ.

كانت وفاة ابن جبير في هذا العام بعيداً عن الأندلس، وعن غرناطة، وعن أم المجد التي توفيت من مرض لا شفاء له؛ وعن أولاده (؟) حكمةً عليّة رأفةً ورفقاً بالرجل الذي نذر نفسه للورع والتقوى، لقد توفي في البلد الذي استقبله أول مرة ـ كما استقبل جموع المغاربة الذين ينوون الحج بالإهانة والإذلال من رجال «الجمرك» الذين فتشوا كل فرد رجلاً كان أو امرأة وأخذوا منه مكساً على نفسه وعلى ما يحمل من بضاعة، ولو كانت جراباً يحتوي على زاده. ونفر ابن جبير من تلك المعاملة، وفارق هدوءه، واسترجع غضبه المغربي الحرّ الذي يأبى الضيم؛ وقدّر أن إجراءات المكوس كانت وليدة طمع عصبة من الموظفين، وأن صلاح الدين لا يعرف بها، وأنّه لو عرف بها لما أقرّها بل لبادر

إلى إزالتها. إنّ صلاح الدين في تصوره هو البطل الذي أرسله الله لإحقاق العدل والرفق بالرعية، وأن أعماله الأخرى تدلُّ على ذلك، وأنه هبةٌ من الله لنصر الإسلام واسترداد ثالث الحرمين، ولذلك رفع إليه قصيدة يشكو فيها تصرّف الجباة، ويستثير همّة السلطان للضرب على أيدي أولئك المجرمين، واستجاب صلاح الدين، فأعفى المغاربة من كل المكوس، وهيأ لهم الفنادق الصالحة لنزولهم، وأجرى عليهم الأعطيات بدلاً من أن يطالبوا بمكوس لم يقرّها الشرع، وتوسَّع في إكرامهم في أمور شتى، حتى أصبحت مناسك الحج والمدارس والزوايا والمستشفيات وغيرها من المرافق كلها مفتوحة لاستقبالهم والعناية بهم وإكرامهم. وبعد أن كان ابن جبير الشاب يقف مدحه على ولاة «الموحدين» وجد في صلاح الدين البطل الإسلامي الحقيقي الذي تستحق أعماله الإشادة والثناء؛ لقد وجد الشاعر الورع الرجلَ الذي إذا مدحه لم يكن مبالغاً مهما يحاول المبالغة، وقد وجَد ابن جبير في المشرق مجالاً للتأليف والتدريس، فأطال الإقامة، حتى وافته منيته في المشرق.

وحين توفي الشاعر ذو المشاعر الرقيقة في العام الذي توفي فيه، كانت الأقدار تحجب عن عينيه ما يذخره المستقبل من نكسات بعد صلاح الدين، وكانت القدس التي استردها صلاح الدين أشقى المدن بمن خلفه من الحكام الضعفاء المتنابذين فيما بينهم، ففي سنة 616 هـ رأى المعظم عيسى أنّه لا بدّ من هدمها، لكي لا يستولي عليها الغزاة الأوروبيون، وبعد سنوات رأى

الكامل محمد أن يقدّمها هدية لصديقه الإمبراطور فردريك (الأنبرور). كل هذا والشعب المسلم يتنزى حسرة على ما انتهت إليه القدس. إن ضعف أمراء المسلمين في القديم والحديث، أشقى القدس وأهلها، بل أشقى فلسطين كلها حين أصبحت في بعض فترات التاريخ عرضة للمساومة. لقد كان ابن جبير سعيداً بأنه لقي منيته، دون أن يعيش ليستطعم مرارة الكوارث التي لم تجد حين وقعت «صلاح دين» آخر، على كل حال لو عاش ابن جبير وشهد بعضاً من تخاذل أمراء المسلمين لمات قهراً. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

معذرة على هذا الاستطراد، فإنّ قيمة البحث العلمي لا تتحمل الاستطراد في نظري، ولكني أعيش ـ أواخر العمر ـ تحت وطأة مفاوضات استسلامية مقابل التنازل عن وطنٍ، فليس عجيباً أن أرى في موت ابن جبير نجاةً من مرحلة استسلامية حدثت بعد وفاته.

2 ـ ابن جبير الشاعر المترسِّل:

نشأ ابن جبير أول أمره ـ كاتباً حسن الخط، قديراً على الترسل، وقد كان لهذه النشأة أثرها في طبيعة نثره وشعره.

أمّا نثره، فقد كان يمثل انصرافه في الأكثر إلى الكتابة الديوانية، إذ كان كاتب الإنشاء لدى ولاة الموحدين في سبتة وغرناطة، وقد كان «الإتقان» الأسلوبي هو الميزة الأولى التي تكفل له البقاء في وظيفته، وتبعد المنافسين عنها، وقد مال أحياناً إلى اتخاذ الأسلوب المألوف في زمنه، وهو أسلوب يعتمد

السجع، ولكن ابن جبير لم يفرط في هذا اللون الأسلوبي، فإنه حين وجد نفسه متحرراً من قيود الدواوين، كتب رحلة، كان السجع من أقل العناصر الأسلوبية فيها، غير أنه وجد نفسه ـ بعيداً عن الرسائل الديوانية ـ يصوغ عبارات حكمية، وهذه تكون إذا كانت مسجوعة أبلغ تأثيراً.

كما أن نشأته في معالجة النثر قبل الشعر جعلته يصوغ أقوالاً وردت لديه منثورة، في شكل شعر منظوم، وقد يحسّ قارىء بعض مقطعاته المحوّلة من نثر إلى نظم على أنها ينقصها كثير من الوضوح (ق: 34 مثلاً).

ولا ريب في أنّ له رسائل إخوانية كثيرة، فقد كان بينه وبين أدباء عصره في الأندلس والمشرق مخاطبات وجوابات، ولكن لم يصلنا منها شيء إلاّ بضعة نماذج، لا تعبّر تعبيراً عالياً عن قدرته في الترسل.

أمّا شعره، فقد حددته النشأة أيضاً إذ نشأ الرجل مدّاحاً لولاة الموحدين، وزاد في هذه الناحية حتى أكثر إذ كانت وسيلة لجلب الرزق، ولكنه أضرب عن هذا كله، فتحدد شعره بسبب الرحلة في التشوق إلى طيبة (المدينة) ومكة، وغيرهما من الأماكن المقدسة، وكان سعيداً إذ استطاع أن يزور مكة والمدينة والخليل (في سنة واحدة). وأنا أعتقد أن الخليل تعني ضمناً «بيت المقدس» ومعها الخليل. وأصبحت مشاعره مرتبطة بمناظر الوداع واللقاء، والشوق إلى السفر والشوق للعودة وبخاصة إلى شرق الأندلس، واستطاع الحنين الرقيق أن يدمغ أكثر شعره بطابعه؛ ولكن هناك موضوعاً

مهماً ينافس الحنين، إذ لم يكن من العجيب أن يتوجه الرجل التقي الورع إلى صوغ النصائح والحثّ على مكارم الأخلاق، لكن دون إلحاح كثير في هذه الناحية، إنّ رجلاً مثله كان يرى أنّ الأدب التعليمي جزء لا يتجزأ من رسالته في الحياة. ولكن الشيء العجيب لدى ابن جبير هو أنّ هذا الرجل الذي لا يسأم من خدمة الناس وتحقيق مصالحهم كان أيضاً كثير التذمّر من تغير الإخوان، ومن البون الشاسع بين أفواههم التي طليت بالعسل وبين قلوبهم التي ملئت بالصبر المرّ. على أنّه وجد بينهم قلّة لا يدرك علاقاتها التغير ولا يعتريها التقلّب.

وقد أسرف ابن جبير في الحطّ على الفلاسفة في مقطعاته، وخصَّ ابن رشد الحفيد الفيلسوف بقسط غير قليل منها، وهذا نابعٌ من نظرته الدينية إلى الفلسفة وأنها تمثل مروقاً من الدين، وهو في هذا غير شاذّ عن أكثر علماء بلده، ولكني أعتقد أنّ هذا كله حماسة في غير موضعها. فابن رشد مثلاً كانت فلسفته عاملاً من عوامل النهضة الأوروبية، وهو قد خدم الحضارة الإنسانية والفكر الإنساني بأكثر مما خدمهما غيره، فالشماتة بنكبته لا تتلاءم مع سماحة ابن جبير وحبه للحقيقة وللعدل والإنصاف، ولكن معاداة الفلسفة قد اكتوى بنارها الفكر المشرقي والمغربي على السواء في العصور الوسطى. وذلك كله بسبب الإسراع في الاتهام والعزوف عن تحرّي الحقائق.

ويعزى الفضل إلى ابن عبد الملك المراكشي صاحب الذيل والتكملة في أنه حصر شعر ابن جبير وعنه ينقل لسان الدين بن

الخطيب مصرّحاً، فيما يلي:

1 ـ ديوان شعره رأى منه المراكشي مجلداً متوسطاً يكون بقدر ديوان أبي تمام الذي جمعه الصولي.

2 ـ مراثيه في زوجه أم المجد سمّاه: «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح» يحتوي على ما قاله في مرضها وفي رثائها.

3 ـ خمس موشحات في الموضوع السابق جعلها في آخر «نتيجة وجد الجوانح».

4 ـ «نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان» يشتمل على أزيد من مائتي بيت.

هل لابن جبير مؤلفات غير ما تقدّم ذكره؟ إذا استثنينا الرحلة وجدنا المصادر تذكر له مؤلفاً بعنوان: «اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك» ويعتقد كراتشكوفسكي أنّ هذا العنوان قد يصلح اسماً للرحلة، ولكن المصادر العربية لا توحّد بينهما[1].

الرحلة: لم يكتشف من رحلة ابن جبير إلاّ مخطوطة ليدن التي نشرها المستشرق البريطاني وليم رايت W.Wright في أول مرة سنة 1852 م، ثم راجعها دي خويه وأعاد نشرها سنة (1907 م)[2].

(1) يذكر ابن عبد الملك أنَّ هذا عنوان رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه بمدينة فاس، وهذا قد لا ينطبق على رحلة طويلة، وإنما على جزء غير كبير منها.

(2) يقول شارل بلا EI_2 III, 755 ان الأستاذ حسين نصار نشر طبعة رديئة بمصر سنة 1923 م اعتماداً على طبعة رايت، وأنّه أعاد نشرها في طبعة أفضل سنة 1952 م.

ونشرت في سلسلة (Gibb Memorial V) وهي الطبعة التي اعتمدتُ عليها في هذه الدراسة، وفي الاقتباس منها.

وقد ظهر على الصفحة الأولى من متن هذه الطبعة هذه العبارة: «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» على أنها عنوان الرحلة. ويرى كراتشكوفسكي أنّ هذا عنوان منحول، وأنه يكفي أن يقال «رحلة الكناني» لتمييزها[1].

وهذه الرحلة تمثل أول رحلة قام بها ابن جبير وفي صحبته صديقه أبو جعفر ابن حسان، ومع أنه قام برحلتين بعد ذلك، فإنه لم يحاول أن يكتب عن تجربته فيهما، ولعل السبب في ذلك أنّه لم يغيّر كثيراً في الأمكنة التي زارها في الرحلة الأولى.

ليس لأدب الرحلة في الجغرافيا الإسلامية تاريخ طويل قبل ابن جبير، فهناك «سفرنامه» لناصر خسرو وهي بالفارسية. أمّا في العربية فلا يذكر قبلها إلاّ رحلة ابن العربي الفقيه، وقد ضاعت هذه الرحلة باعتراف كاتبها، ولم يبق منها إلاّ شذرات جمعها المؤلف نفسه وسردها في أول كتابه «قانون التأويل» ـ وقد نشرت ما جاء في هذا الكتاب نفسه من الرحلة في الستينات من القرن العشرين، لأهمية ما جاء فيها عن فلسطين وعن الثقافة في مدنها، وبخاصة بيت المقدس، ولكن هذه الحقيقة لم تكن معروفة عندما كتب كراتشكوفسكي كتابه. وإذن فرحلة ابن جبير تعد طليعة أدب جغرافي متميز ـ بالمعنى الفني لا بالمعنى العام ـ لكلمة «أدب».

---

(1) انظر تاريخ الأدب الجغرافي (ترجمة صلاح الدين هاشم).

وتتميز رحلة ابن جبير بأسلوب سهل جميل مع ميل إلى التفصيلات وبخاصة في وصف العمران، ولا تخلو من مشاهد تتسم بالإثارة، كوصف انطلاق السفينة أو عودتها وما تعرضت له من أخطار، وباهتمام المؤلف بتصوير المعالم البارزة في مصر والشام والعراق والجزيرة، والفصل الذي كتبه عن صقلية وعن العناصر الإسلامية فيها فصل مهم جداً لدارس حياة المسلمين في تلك الجزيرة؛ وصورة بلاد الشام في أيام النزاع بين المسلمين والصليبيين على السيادة، وحالة المجتمع الريفي الشامي تحت السيطرة الأجنبية أمرٌ يلفت النظر لا بدقته وحسب، بل بالموضوعية التي يتحلى بها الرجل المتدين ابن جبير، لكن هذه الموضوعية لم تنسِ الشاعر أن يرفع صوته بالدعوة إلى الجهاد.

أمّا دقة ابن جبير فإنها مضرب المثل سواء في ذلك: دقة الملاحظة، ودقة المعلومات، ولننقل بعض ما قاله ابن عبد الملك فيها: «وهي كتاب ممتع مؤنس مثير سواكن النفوس إلى الوفادة على تلك المعالم المكرّمة والمشاهد المعظّمة»[1]. وهذا فهم خاصّ من المراكشي، إذ رأى في هذه الرحلة هدفاً خاصاً هو إثارة النفوس إلى زيارة الأماكن المقدّسة على رغم ما هنالك من صعوبات، وخصوصاً في الطريق التي سلكها ابن جبير، وهي ركوب البحر حتى الإسكندرية، ثم ركوب النيل إلى القاهرة، والانطلاق في النيل نفسه حتى عيذاب ثم في الوصول من عيذاب إلى جدّة، ففي كل هذه المسافات من الأخطار المتوقعة أمرٌ لا

(1) الذيل والتكملة 5:599 ـ 600.

يشجع كثيراً على اختيار تلك الطريق. وأرى أن أورد رأي الباحث الكبير أغناطيوس كراتشكوفسكي العالم القدير في دراسة هذا العلم عند المسلمين إذ خصَّ هذه الرحلة بقوله:

«وتعتبر رحلة ابن جبير من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي، وإذا كان وصفه المفصل للأبنية مملاً للقارىء العادي، فإن أسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير، مثال ذلك وصفه لمكس الإسكندرية أو لكارثة السفينة على سواحل صقلية. أما عرضه العامّ فيستهدف الصنعة والأناقة، وهو كثيراً ما يلجأ إلى السجع الذي يعالجه بالكثير من المهارة دون أن يبالغ فيه أو يضطر القارىء إلى تكلف الجهد في تفهمه، كما يشحن كتابه بالاقتباسات الأدبية والإشارات اللطيفة، مما يتطلب درجة معينة من المعرفة والاطلاع...، وبعد فهذا مصنّف رفيع الأسلوب، يختتم بجدارة حلقة الجغرافيين الأندلسيين لهذا العصر»[1].

ولا يختلف رأي أستاذنا الدكتور حسين مؤنس رحمه الله كثيراً عن رأي كراتشكوفسكي في رحلة ابن جبير، ومقامها المتميز في أدب الرحلات، بل يقول بعد أن يصف الجيشان العاطفي لدى ابن جبير في كل رحلة قام بها: «وهذا الفيض العاطفي الذي امتاز به ابن جبير هو ـ فيما نرى ـ دافعه إلى تقييد رحلته، فإنّ تقييد الرجل لخطوات رحلته وتسجيله أحداثها يدل على أنه كان يشعر أنها أمرٌ هام جدير بأن يسجَّل ويوصف، وأنها ليست نزهة يقوم بها

(1) تاريخ الأدب الجغرافي: 335.

أو فرضاً يؤديه. . . وهذا شأن رحالة حق يتجشم أخطار الأسفار ومتاعبها ليرى ويتعلّم وليحسّ وينفعل بما يرى، وهذا أيضاً هو الذي جعل لهذه الرحلة تلك القيمة العلمية والأدبية الكبرى»[1].

ويقول أيضاً: «وإذا كانت الرحلات للمشاهدة والملاحظة والدراسة تعتبر من عُمَد العلم الجغرافي، فإنّ ابن جبير يحتلُّ عن جدارة مكاناً صدراً في تاريخ الجغرافية في الأندلس، على هذا الأساس، وإن لم تكن مادة كتابه جغرافية صرفة، بل إن التاريخ والآثار هما الغالبان عليها. . .»[2].

وقد أصبحت رحلة ابن جبير مصدراً لمن جاء بعده من الرحالين وغيرهم. ولعل أول من استفاد منها هو الشريشي، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن تلميذ ابن جبير، إذ اقتبس منها نصوصاً كثيرة في شرحه لمقامات الحريري، وكانت مقامات الحريري من أهمّ الكتب التي دَرَسها أستاذه ابن جبير على بعض العلماء كذلك يعتمد عليها ابن بطوطة (أو ابن جزي) في رحلة ابن بطوطة، وغيره.

وفي العصر الحديث ترجمها سكيا باريلي (Schia parelli) إلى اللغة الإيطالية ترجمة جيدة، كما ترجمت إلى الإسبانية، وكتب عنها من ترجمها دراسة في مقدمة كل ترجمة.

---

(1) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس: 438.
(2) المصدر السابق نفسه.

شعر ابن جبير ونثره

1 ـ شعره (القصائد)

ـ 1 ـ
القصـائـد

ـ 1 ـ

ومن شعره يرثي ابنه أحمد: [من الطويل]

1 ـ رَأَى الْحُزْنُ مَا عِنْدِي مِنَ الْحُزنَ وَالْكَرْبِ
فَـرُوِّعَ مِـنْ حَـالِـي فَلَـمْ يَسْتَطِـعْ قُـرِبـي

2 ـ وَأَظْهَـرَ عَجْـزاً عَـنْ مُقَـاوَمَـةِ الأَسِـى
وَأَيْقَـنَ أَلاَّ خَطْـبَ أَعْظَـمُ مِـنْ خَطْبِـي

3 ـ وَقَـالَ الْتَمِـسْ غَيْرِي لِنَفْسِـكَ صَـاحِباً
وَقُلْ لِلرَّدَى حَسْبِي، بَلَغْت المَدَى، حَسْبِي

4 ـ فَقُلْـتُ وَهَـل يَكْفِينِيَ الْـوَجْـدُ صَـاحِبـاً
وَكَيْـفَ وَمَـا بِـي قَـدْ تَعَـدَّى إِلَـى صَحْبِـي

5 ـ فَلَمَّـا انْتَهَـتْ بِي شِـدَّتِي فِي مُصِيبَتِي
وَبَـرَّحَ بِـي يَـأْسِـي رَجَعْـتُ إِلَـى رَبِّـي

6 ـ فَـأَسْتَنْشِقَـنْ رَوْحَ الـرِّضَـى بِقَضَـائِـه
فَنَـادَيْـتُ يَـا بَـرْدَ النَّسِيـمِ عَلَـى قَلْبِـي

7 ـ إِلَـى اللهِ أَشْكُـو بِـالـرَّزَايَـا وَفِعْلِهَـا
فَقَـدْ كَـدَّرَتْ شِـرْبِـي وَقَـدْ رَوَّعَـتْ سِـرْبِـي

---

(1) 1 ـ 51 في أعلام مالقة 147 ـ 149.

8 ـ سَلِ اللَّيْلَ عَنِّي هَلْ أَمِنْتُ إِلَى الْكَرَى
فَكَيْفَ وَأَجْفَانِي مَعَ النَّوْمِ فِي حَرْبِ

9 ـ وَقَدْ رَقَّ لِي حَتَّى تَفَرَّى أَدِيمُهُ
وَأَقْبَلَ يَبْكِينِي بِأَنْجُمِهِ الشُّهْبِ

10 ـ لِحَالِيَ أَبْدَى الرَّعْدُ أَنَّةَ مُوجَعٍ
وَلِي البَرْقُ شَعَّ فِي التَّرَامِي مَعَ السُّحْبِ

11 ـ وَلِي لَبِسَ الْجَوُّ الحِدَادَ بِدُجْنَةٍ
وَأَسْبَلَ دَمْعَ القطْرِ سَكْباً عَلَى سَكْبِ

12 ـ ومِنْ أَجْلِ مَا بِي أَبْدَت الشَّمْسُ بِالضُّحَى
شُحُوبَ ضَنًى قَبْلَ الجُنُوحِ إِلَى الحَجْبِ

13 ـ عَلَى وَاحِدٍ قَدْ كَانَ لِي فَفَقَدْتُهُ
عَلَى غِرَّةٍ فَقْدَ الجَوَانِحِ لِلْقَلْبِ

14 ـ فَحُزْنِي عَلَيْهِ جَاوَزَ الْحَدَّ قَدْرُهُ
وَلاَ حُزْنَ يَعْقُوبٍ، ويُوسُفُ فِي الجُبِّ

15 ـ وَأَكْثَرُ إِشْفَاقِي لأُمٍّ حَزِينَةٍ
مُقَسَّمَةٍ بَيْنَ الأَسَى فِيهِ وَالْحُبِّ

16 ـ وَأَذْهَلَهَا عَنْ حَالِهَا فَرْطُ وَجْدِهَا
عَلَيْهِ وَقَدْ يُسْتَسْهَلُ الصَّعْبُ لِلصَّعْبِ

17 ـ بُنَيَّ أَجِبْهَا فَهْيَ تَدْعُوكَ حَسْرَةً
وَأَدْمُعُهَا تَنْهَلُّ غَرْباً عَلَى غَرْبِ

18 ـ بُنَيَّ أَحَقّاً صِرْتَ رَهْنَ يَدِ البِلَى
وَنَهْبَ الثَّرَى أَمْسَيْتَ، يَا لَكَ مِنْ نَهْبِ

19 ـ بُنَـيَّ عَسَـاهَـا نَـوْمَـةٌ، فَـانْتِبَـاهَـةٌ
فَكَـمْ ذَا أُنَـادِي الْعَيْـنَ: طَـالَ الكَـرَى نَعْبِـي

20 ـ بُنَـيَّ أَعِـرْنِـي مِـنْ مَنَـامِـكَ خِلْسَـةً
لَعَلِّـيَ أَنْ أَلْقَـى مُنَـايَ مِـنَ الغَيْـبِ

21 ـ بُنَـيَّ أَرِحْنِـي بِـالإِجَـابَـةِ مُخْبِـراً
فَقَـدْ كُنْـتَ ذَا رَأْيٍ، فَمَـا لَـكَ لاَ تُنْبِـي

22 ـ بُنَيَّ وَفِـي طَـيِّ الحَشَـا كُنْـتَ ثَـاوِيـاً
فَكَيْـفَ سَخَـتْ نَفْسِـي بِـدَفْنِـكَ فِـي التُّـرْبِ

23 ـ فَلاَ غَرْوَ أَنْ أَضْحَى لَكَ الغَرْبُ مَدْفَناً
فَـإِنَّ مَغِيـبَ الشَّمْـسِ وَالْبَـدْرِ فُـي الغَـرْبِ

24 ـ لَقَـدْ هَصَـرَتْ كَـفُّ المَنُونِ إِلَـى الْبِلَـى
قَضِيـبَ شَبَـابٍ كَـانَ مَـنْ أَنْضَـرِ القُضْـبِ

25 ـ فَيَـا غُصُنـاً خَفَّـتْ أَزَاهِـرُ حُسْنِـهِ
تُحَلِّيـكَ أَجْفَـانِـي بِلُـؤْلُـؤِهَـا الـرَّطْـبِ

26 ـ وَيَا أَحْمَدُ الْمَحْمُودُ قَدْ كُنْتَ مُشْبِهاً
بِطِيـبِ الخِـلاَلِ الْحُلْـوِ وَالْبَـارِدِ العَـذْبِ

27 ـ لآلِ جُبَيْـرٍ فِيـكَ أَيُّ فَجِيعَـةٍ
فَمَـا مِنْهُـمُ مَـنْ يَسْتَفِيـقُ مِـنَ الكَـرْبِ

28 ـ وَقَدْ كُنْتَ وُسْطَى العِقْدِ فِيهِمْ فَرُبَّمَا
نَقَصْـتَ، فَصَـارَ العِقْـدُ مُنْتَثِـرَ الحَـبِّ

29 ـ وَكَـمْ خَـالَـةٍ أَمْسَـتْ عَلَيْـكَ بِحَـالَـةٍ
مِـنَ الحُـزْنِ مَـا تَنْفَـكُّ ذَاهِلَـةَ اللُّـبِّ

30 ـ وَأَبْنَاءِ خَالاَتٍ تُسَقّيهِمُ الأَسَى
كُؤُوساً وَهُمْ حَتَّى إِلَى الآنَ فِي الشُّرْبِ

31 ـ وَصَاحِبَةٍ قَدْ كُنْتَ صَبّاً بِذِكْرِهَا
وَكُنْتَ لَهَا حِبّاً، وَنَاهِيكَ مِنْ حِبِّ

32 ـ فَأَنَّتْ وَهَامَتْ فِيكَ بِالْوَجْدِ وَالأَسَى
وَحُقَّ لَهَا فَالصَّبُّ يُفْجَعُ بَالصَّبِّ

33 ـ وَرَاحَتْ بِأَثْوَابِ الحِدَادِ وَطَالَمَا
لَهَا كُنْتَ تَسْتَخْفِي الحَرِيرَ مَعَ العَصْبِ

34 ـ وَكَمْ أَجْنَبِيٍّ فِيكَ قَدْ بَاتَ سَاهِراً
تُقَلِّبُهُ الأَفْكَارُ جَنْباً إِلَى جَنْبِ

35 ـ رُزِقْتَ قَبُولاً مَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ
فَهَذَا عَلَى هَذَا بِإِشْفَاقِهِ يُرْبِي

36 ـ وَكُنْتَ وَصُولاً لِلْقَرَابَةِ جَارِياً
لِمَرْضَاتِهِمْ، بَرّاً، بَرِيئاً مِنَ العُجْبِ

37 ـ مُجِدّاً إِذَا كُلِّفْتَ أَمْرَ مُلِمَّةٍ
مَضَيْتَ مَضَاءَ السَّهْمِ وَالصَّارِمِ العَضْبِ

38 ـ جَوَاداً كَرِيمَ النَّفْسِ تَلْتَذُّ بِالنَّدَى
فَتَسْخُو وَلا تُخْفِي، وتُحْيِي وَلاَ تَجْبِي

39 ـ حَرِيصاً عَلَى نَيْلِ المَعَالِي بِهِمَّةٍ
كَسَبْتَ بِهَا مِنْ ذخْرِهَا أَفْضَلَ الْكَسْبِ

40 ـ وَكَانَتْ لَكَ الآدَابُ رَوْضَةَ نُزْهَةٍ
وَكُنْتَ مُحِبّاً فِي مُطَالَعَةِ الكُتْبِ

41 ـ تُفَتِّقُ زَهْرَ النَّثْرِ فِي الطِّرْسِ يَانِعاً
وَتَنْظِمُ دُرَّ الشِّعْرِ نَظْماً بِلاَ تَعْبِ

42 ـ وَمَا زِلْتَ بِالهَدْيِ الجَمِيلِ وبِالْحِجَا
مُعِزّاً (لأَهْلٍ) فِي البِعَادِ وَفِي القُرْبِ

43 ـ وَزَادَ عَلَى العِشْرِينَ سِنُّكَ أَرْبَعاً
فَعَاجَلَكَ الحَيْنُ المُقَدَّرُ بِالغيبِ

44 ـ شَهَيداً بِطَاعُونٍ أَصَابَكَ بغْتَةً
كَمِثْلِ شَهِيدِ الطَّعْنِ فِي سَاحَةِ الضَّرْبِ

45 ـ وَكُنْتَ غَرِيباً فَاسْتَزَدْتَ شَهَادَةً
لأُخْرَى كَبُشْرَى سَيِّدِ العُجْمِ وَالْعُرْبِ

46 ـ أَطَلْتَ مَغِيباً ثُمَّ جِئْتَ مُوَدِّعاً
إلَى سَفَرٍ (يَدْنُو) مُدِلاً عَلَى الرَّكْبِ

47 ـ وَلَمْ أَشْفِ مِنْ لُقْيَاكَ قَلْبِي فَلَيْتَنِي
لِبَرْحِ اشْتِيَاقِي لَوْ قَضَيْتُ بِهِ نَحْبِي

48 ـ وَعُقْبَاكَ بَعْدِي كُنْتُ أَرْجُو بَقَاءَهَا
زَمَاناً لِيَبْقَى مِنْ بَنِيكَ بِهَا عَقْبِي

49 ـ رَضِيتُ بِحُكْمِ اللهِ فِيكَ فَإِنَّمَا
نُقِلْتَ لِحِزْبِ اللهِ، بُورِكَ مِنْ حِزْبِ

50 ـ وَإِنِّي لَرَاضٍ عَنْكَ، فَابْشِرْ، فَبِالرِّضَى
أُرَجِّي لَكَ الزُّلْفَى وَمَغْفِرَةَ الذَّنْبِ

51 ـ فَجَادَتْ عَلَى مَثْوَاكَ مُزْنَةُ رَحْمَةٍ
وَبَوَّأَكَ الرَّحْمَنُ فِي المَنْزِلِ الرَّحْبِ

ـ 2 ـ

(ومن شعره): [من الطويل]

1 ـ وَيَوْمٍ تَضُوعُ الشَّمْسُ حَلْياً بِحُسْنِهِ
تُفَضِّضُهُ طَوْراً وطَوْراً تُذَهِّبُ

2 ـ تُرِيهِ كَحَلْيٍ مُشْرِقِ الوَجْهِ فِي الضُّحَى
وتُضْمِرُ شجْواً فَي الأَصِيلِ فيَنْحبُ

3 ـ تَبَسَّمَ عَنْ ثغْرِ العَشِيَّةِ مِثْلَ مَا
جَلاَ صُفْرَةَ المسْوَاكِ أَلْعَسُ أَشْنَبُ

4 ـ تَجَلَّى بِه غُصْنٌ تَطَلَّعَ بِشْرُهُ
فَقُلْنَا: أَيَبْدُو الصُّبْحُ، وَالشَّمْسُ تَغْرُبُ

5 ـ وَقَدْ قَابَلَتْنَا مِنْ سَجَايَاهُ نَفْحَةٌ
أَنَمُّ مِنَ المِسْكِ الفَتِيقِ وَأَطْيَبُ

6 ـ شَمَائِلُهُ تُزْهَى الشَّمُولُ بِطِيبِهَا
وَمَا خِلْتُ أَنَّ الرَّاحَ بِالرَّاحِ تعْجبُ

7 ـ تُدَارُ عَلَيْنَا بِالْكُؤُوسِ كَوَاكِبٌ
إِذَا غَابَ مِنْهَا كَوْكَبٌ لاَحَ كَوْكَبُ

---

(2) في أعلام مالقة 141 ـ 142.

8 ـ فَنَشْـرَبُهَـا فِـي وِرْدِهِ وَهْـيَ عِنْـدَنَـا
أَلَــذُّ مِــنَ الْعَيْــشِ الهَنِــيِّ وَأَعْــذَبُ

9 ـ بِمَجْلِسِ أُنْسٍ وَدَّتِ الشَّمْسُ لَوْ تَرَى
كُـؤُوسـاً بِهَـا بَيْـنَ النَّـدَامَـى فَتَشْـرَبُ

10 ـ يُـذَكِّـرُنَـا دَارَ النَّعِيـمِ بِحُسْنِـهِ
يُعِيـدُ شَبَـابَ الْمَـرْءِ وَالْمَـرْءُ أَشْيَـبُ

11 ـ مَحَبَّتُنَـا أَضْحَـتْ إِلَيْـهِ وَسِيلَـةً
فَتُـدْنِـي إِلَـى مَـرْضَـاتِـهِ وتُقَـرِّبُ

ـ 3 ـ

وقال في تغير الأخوان: [من الطويل]

1 ـ صبرتُ عَلى غَدْرِ الزّمانِ وحقدِهِ
وشـاب لـيَ السـمَّ الـزُّعـافَ بشَهْـدِهِ

2 ـ وجَـرَّبـتُ إخـوانَ الـزمـانِ فلـم أجِـدْ
صـديقـاً جميـلَ الغيـبِ فـي حـالِ بُعـدِهِ

3 ـ وكَـمْ صـاحـبٍ عـاشـرتُـهُ وألِفْتُـهُ
فمـا دام لـي يـومـاً علـى حُسْـنِ عَهْـدِهِ

4 ـ وكـم غَـرَّنـي تحسيـنُ ظنّـي بـهِ فلـم
يضـيء لـي علـى طـولِ اقتـداحـيْ لـزنـدهِ

---

(3) 1ـ 11 في نفح الطيب 2:490 ـ 491.

5 ـ وأغربُ من عَنْقاءَ في الدهر مُغْرِبٍ
أخـــو ثقـــةٍ يسقيـــكَ صـــافـــيَ ودِّهِ

6 ـ بنفسـك صـادمْ كـلَّ أمـرٍ تـريـدُهُ
فليـــس مضـــاءُ السيـــفِ إلا بِحَـــدِّهِ

7 ـ وعَـزْمَـكَ جَـرِّدْ عنـد كـلِّ مهمَّـةٍ
فمـــا نـــافـــعٌ مُكْـــثُ الحســـامِ بِغِمْـــدِهِ

8 ـ وشـاهـدتُ فـي الأسفـارِ كـلَّ عجيبـةٍ
فلَـــمْ أرَ مَـــنْ قـــد نـــال جَـــدّاً بجِـــدّهِ

9 ـ فكـن ذا اقتصـادٍ فـي أمـورِكَ كلِّهـا
فـأحْسـنُ أحـوالِ الفتـى حُسْـنُ قصْـدِهِ

10 ـ ومـا يُحْـرَمُ الإنسـانُ رزقـاً لعَجْـزه
كمـــا لا ينـــالُ الـــرزقَ يـــومـــاً بكـــدّهِ

11 ـ حُظـوظ الفتـى مِـن شقـوةٍ وسعـادةٍ
جَـــرَتْ بقضـــاءٍ لا سبيـــلَ لـــردّهِ

ـ 4 ـ

وقال: [من الوافر]

1 ـ بنـي الإسـلام جـدوا فـي الجهـاد
بِسُمْـــرِ الخـــطِّ والبيـــضِ الحـــدادِ

2 ـ وبيعـــوهـــا فـــربّكـــم اشتـــراهـــا
نفـــوســـاً تـــربحـــوهـــا فـــي المعـــاد

---

(4) 1 ـ 7 في قلائد الجمان 130:6.

3 ـ عدوّكُم بعقـركم مقيم
ليستولي على ملك البلاد

4 ـ وبيت القدس يَفْرَقُ كلَّ يوم
حذاراً أن يعود إلى الأعادي

5 ـ ودين الله يلحظه «أغثنا»
بجفنٍ قد تكحَّلَ بالسهاد

6 ـ فسلُّوا المشرفيَّة واستقلّوا
بها فوق المسوَّمَةِ الجياد

7 ـ فليس يفوز بالحسنى سوى من
تَدَرَّعَ بالجلادة للجلاد

ـ 5 ـ

ومن شعره في عثمان بن عبد المؤمن : [من الطويل]

1 ـ عِيد بِمَا يَهْوَى الإِمَامُ يَعُودُ
مَا اخْضَرَّ فِي وَجْهِ البَسِيطَةِ عُودُ

2 ـ لَوْلاَ لُزُومُ الشَّرْعِ لَمْ نَحْفِل بِهِ
إِذْ كُلُّ يَوْمٍ فِي ذُرَاهُ عِيدُ

3 ـ حَيَّا هلال الْعِيدِ بَدْر خِلاَفَةٍ
يَهْنِيهِ إِنَّ قِرَانَهُ لَسَعِيدُ

(5) 1ـ 17 في أعلام مالقة 140 ـ 141.

4 ـ وَأَتَى يُجَرِّرُ بِالْمَجَرَّةِ ذَيْلَهُ
رَكْضاً وَإِنَّ مَزَارَهُ لَبَعِيدُ

5 ـ وَكَأَنَّمَا أَضْنَاهُ شَوْقٌ لِقَائِهِ
أَمِنَ الأَهِلَّةِ هَائِمٌ وَعَمِيدُ

6 ـ لَمْ تَثْنِهِ الأَشْوَاقُ عَنْ حَسَدٍ لَهُ
إِحْدَى العَجَائِبِ وَامِقٌ وَحَسُودُ

7 ـ بُشْرَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ
عِيدٌ حَدَتْهُ لِلْفُتُوحِ سُعُودُ

8 ـ طَرِبَ الجَوَادُ وَقَدْ عَلَوْتَ بِمَتْنِهِ
حَتَّى كَأَنَّ صَهِيلَهُ تَغْرِيدُ

9 ـ يَهْفُو بِعِطْفَيْهِ المراحُ فَيَرْتَمِي
لَعِباً وَيَنْقُصُ تَارَةً ويَزِيدُ

10 ـ وَلَرُبَّمَا سَالَتْ عَلَيْهِ سَكِينَةٌ
حَتَّى تَخَالَ بِعِطْفَتَيْهِ خُمُودُ

11 ـ يُزْهَى فَيُظْهِرُ نَخْوَةً لَمَّا رَأَى
بِكَ أَنَّهُ فِي حُسْنِهِ مَحْمُودُ

12 ـ كَيْفَ اسْتَقَلَّ بِطَوْدِ حِلْمٍ رَاجِحٍ
وَالطَّوْدُ يَثْقُلُ حِمْلُهُ وَيَؤُودُ

13 ـ لَوْ كُنْتَ تَرْضَى نَعَّلَتْهُ خُدُودَهَا
مُتَشَرِّفِينَ بِهِ، الْمُلُوكُ الصِّيدُ

14 ـ مَلِكٌ تَوَدُّ النَّيِّرَاتُ لَوَ انَّهَا
حلْيٌ عَلَى أَعْطَافِهِ وَفَرِيدْ

15 ـ أَوَ مَا كَفَاهَا أَنَّ شِسْعَ نِعَالِهِ
بِجَبِينِ أَشْرَفِهَا، سَنَا مَعْقُودُ
16 ـ يَا مَنْ يَرُومُ بُلُوغَ بَعْضِ صِفَاتِهِ
هَيْهَاتَ لَيْسَ لِكُنْهِهَا تَحْدِيدُ
17 ـ كَمْ ذَا تُحَاوِلُ عَدَّ زُهْرِ خِصَالِهِ
أَقْصِرْ فَمَا لأَقَلِّهَا تَعْدِيدُ

ـ 6 ـ

وقال: [من المتقارب]

1 ـ خلعت العذارَ بشيب العذار
فما يُقْبَلُ اليومَ منك اعتذارْ
2 ـ وقالوا المشيبُ وقار الفتى
وهذا المشيب فأين الوقار
3 ـ جلا صبحه عنكَ ليلَ الشهاب
فشمسكَ مؤذنةٌ باصفرار
4 ـ أراك صحبتَ حياة الغرور
وتسحب جهلاً ذيولَ اغترار
5 ـ ألستَ ترى كدراً صفوها
ونجمك قد مال يبغي انكسار
6 ـ وكيف تنام على غِرَّةٍ
وسيفُ المنيةِ ماضي الغرار

---

(6) 1 ـ 11 في قلائد الجمان 129:6.

7 ـ فلو كنت تحذر صرفَ الردى
إذن لنفى النومَ عنكَ الحذار
8 ـ عبرتَ مراحلَ عمر الأشد
ولستُ أرى لك فيها اعتبار
9 ـ وجُرْتَ بها عن طريق الهدى
ضلالاً وتغدو غداً أن تجار
10 ـ أتاك الرحيلُ فشمِّرْ له
فإما إلى جَنَّةٍ أو لنار
11 ـ وكيف تقرُّ بدنياك عيناً
ولم تدرِ أين يكون القرار

ـ 7 ـ

ومن شعره وقد شارف المدينة المكرمة على ساكنها الصلاة والسلام: [من المتقارب]

1 ـ أَقولُ وآنستُ بالليلِ نارا
لعلّ سراجَ الهدى قد أَنارا
2 ـ وإلا فما بالُ أُفْقِ الدجى
كأنَّ سنا البرقِ فيه ٱستطار

---

(7) 1 ـ 33 في الذيل والتكملة 602:5 ـ 603 والإحاطة 335:2 ـ 336 والأبيات 1 ـ 3 في نفح الطيب 487:2 ومنها 33 بيتاً في جذوة الاقتباس: 278 ـ 279.

3 ـ ونحن من الليلِ في حندسٍ
فما بالهُ قد تجلى نهارا

4 ـ وهذا النسيمُ شذا المسكِ قد
أُعيرَ أم المسكُ منه ٱستعارا

5 ـ وكانت رواحلنا تشتكي
وَجَاها فقد سابَقَتْنا ٱبتدارا

6 ـ وكنَّا شكونا عناءَ السُّرى
فَعُدْنَا نباري سراعَ المهارى

7 ـ أظنُّ النفوسَ قد ٱستشعرتْ
بلوغَ هوىً تَخِذَتْهُ شعارا

8 ـ بشائرُ صُبْحِ السُّرى آذنتْ
بأنَّ الحبيبَ تَدانَى مزارا

9 ـ جرى ذكرُ طَيْبَةَ ما بيننا
فلا قلبَ في الركبِ إلا وطارا

10 ـ حنيناً إلى أحمدَ المصطفى
وشوقاً يهيجُ الضلوعَ ٱستعارا

11 ـ ولاح لنا أُحُد مُشْرِقاً
بنورٍ من الشهداء ٱستنارا

12 ـ فمن أجلِ ذلك ظلَّ الدجى
يحلُّ عقودَ النجوم انتثارا

13 ـ ومن ذلك التربِ طاب النسيم
نشراً وعمَّ الجناب انتشارا

14 ـ ومـنْ طَـرَبَ الـركـبِ حـثَّ الخطـى

إليهـــا ونــــادى البِـــدارَ البـــدارا

15 ـ ولمـــا حللنـــا فنـــاءَ الـــرســـولِ

نـــزلنـــا بـــأكـــرَم خلـــقٍ جـــوارا

16 ـ وحيـــن دنـــونـــا لفـــرضِ الســـلامِ

قَصَـــرْنـــا الخطـــى ولـــزمنـــا الـــوقـــارا

17 ـ فمـــا نـــرســـلُ اللحـــظَ إلا اختـــلاســـاً

ولا نـــرفـــعُ الطـــرْفَ إلا أنكســـارا

18 ـ ولا نُظْهِـــرُ الـــوجـــدَ إلا اكتتـــامـــاً

ولا نلفـــظُ القـــولَ إلا ســـرارا

19 ـ ســـوى أننـــا لـــم نُطِـــقْ أعينـــاً

بـــأدمعهـــا غلبتنـــا انفجـــارا [182 و]

20 ـ وقفنَـــا بـــروضتـــهِ للســـلام

نعيـــدُ الســـلامَ عليـــه مـــرارا

21 ـ ولـــولا مهـــابتُـــهُ فـــي النفـــوس

لثمنـــا الثَّـــرى وٱلتـــزمنـــا الجـــدارا

22 ـ قضينـــا بـــزورتنـــا حَجَّنـــا

وبـــالعُمَـــريـــن ختمنـــا اعتمـــارا

23 ـ إليـــكَ إليـــكَ نبـــيَّ الهـــدى

ركبـــتُ البحـــارَ وَجُبْـــتُ القفـــارا

24 ـ وفـــارقـــتُ أهلـــي ولا مِنَّـــةٌ

وَرُبَّ كـــلامٍ يجـــرُّ ٱعتـــذارا

25 ـ وكيـــف نمـــنُّ علـــى مَـــن بـــه

نُـــــؤَمِّـــــلُ للسيئـــــاتِ ٱغتفـــــارا

26 ـ دعـــانـــي إليـــكَ هـــوىً كـــامـــنٌ

أثـــارَ مـــنَ الشـــوقِ مـــا قـــد أثـــارا

27 ـ فنـــاديـــتُ لبَّيْـــكَ داعـــي الهـــدى

ومـــا كنـــتُ عنـــكَ أُطيـــقُ ٱصطبـــارا

28 ـ ووَّطنْـــتُ نفســـي لحكـــم الهـــوى

علـــيَّ وقلـــتُ رضيـــتُ ٱختيـــارا

29 ـ أخـــوضُ الـــدجـــى وأروضُ السُّـــرى

ولا أَطْعَـــمُ النـــومَ إلا غـــرارا

30 ـ ولـــو كنـــتُ لا أستطيـــع السبيـــلَ

لطـــرتُ ولـــو لـــم أُصـــادفْ مطـــارا

31 ـ وأجـــدر مـــن نـــال منـــكَ الـــرضـــى

مُحـــبٌّ ذَراكَ علـــى البعـــد زارا

32 ـ عســـى لحظـــةٌ منـــكَ لـــي فـــي غـــدٍ

تُمَهِّـــدُ لـــي فـــي الجنـــانِ القـــرارا

33 ـ فمـــا ضـــلَّ مَـــنَ بهـــداكَ ٱهتـــدى

ولا ذلَّ مـــن بِـــذَراكِ ٱستجـــارا

ولما ورد في هذه الرحلة الإسكندريةَ متوجهاً إلى الحج في ركب عظيم من المغاربة أمر الناظر على البلد بالبحث عن ما استصحبوه من مال على اختلاف أنواعه وفُتِّشَ الرجال والنساء وهتكت حرمة الحرم ولم يكن منهم إبقاء على أحد، وأحلفوهم بالأيمان المغلظة استبراء لما قدروا غيبتهم عليه، قال: فلما جاءتني النوبة وكانت معي حرم ذكرتهم بالله ووعظتهم فلم يعرجوا على قولي ولا التفتوا إلى كلامي وفتشوني كما فتشوا غيري فاستخرت الله تعالى ونظمت هذه القصيدة ناصحاً لأمير المسلمين صلاح الدين بن أيوب ومذكراً له الله في حقوق المسلمين ومادحاً له فقلت: [من المتقارب]

1 ـ أطلَّتْ على أُفْقِكَ الزاهر
سعودٌ من الفَلَكِ الدائرِ

2 ـ فأَبْشِرْ فإنَّ رقابَ العدا
تُمَدُّ إلى سيفكَ الباتر

3 ـ وعمَّا قليلٍ يحلُّ الردى
بكُنْدِهم الناكثِ الغادر

4 ـ وخصبُ الورى يوم تَسْقي الثرى
سحائبُ من دمها الهامر

---

(8) 1 ـ 25، 27 ـ 67 من الذيل والتكملة 598:5 ـ 601 والبيتان 26، 27 من نفح الطيب 383:2 ومعهما البيتان 24، 28 والبيت الأول والأبيات 1 ـ 61 في رحلة العبدري.

5 ـ فكـم لـك مـن فتكـةٍ فيهـم

حَكَـتْ فتكـةَ الأَسَـدِ الخـادر

6 ـ كسـرتَ صليبهـمُ عَنـوةً

فللّـه درُّكَ مِـنْ كـاسـر

7 ـ وَغيَّـرْتَ آثـارهـم كلَّهـا

فليـس لهـا الـدهـرَ مـن جـابـر

8 ـ وأمضيـتَ جِـدّك فـي غـزوهـمْ

فتعسـاً لجَـدهُـم العـاثـر

9 ـ فـأدبـر ملكهـمُ بـالشـآمِ

وولّـى كـأمسهـم الـدابـر

10 ـ جنـودُكَ بـالـرعـبِ منصـورةٌ

فنـاجـزْ متـى شئـتَ أو صـابـر

11 ـ فكلهـمُ غَـرِقٌ هـالـك

بتيـارِ عسكـرك الـزاخـر

12 ـ ثـأرتَ لـديـنِ الهـدى فـي العـدا

فـآثـركَ اللّـهُ مـنْ ثـائـر

13 ـ وَقُمْـتَ بنصـرِ إلـه الـورى

فسمَّـاك بـالملـكِ النـاصـر

14 ـ وجـاهـدتَ مجتهـداً صـابـراً

فللّـه درُّكَ مـن صـابـر

15 ـ تبيـتُ الملـوكُ علـى فُـرْشهـا

وتـرفـلُ فـي الـزرد السـابـري

16 ـ وتـؤثـرُ جـاهـدَ عيـشِ الجهـادِ
علـى طيـبِ عيشهـم النـاضـر
17 ـ وَتُسْهِـرُ جفنَـكَ فـي حـقِّ مَـنْ
سيـرضيـكَ فـي جفنـك السـاهـر
18 ـ فتحـتَ المقـدَّس مـن أرضـه
فعـادتْ إلـى وَصفِهـا الطـاهـر
19 ـ وجئـتَ إلـى قُـدْسِـهِ المـرتضـى
فخلَّصْتَـهُ مـنْ يـدِ الكـافـر
20 ـ وأعليـتَ فيـه منـارَ الهـدى
وأحييـتَ مـن رَسمِـهِ الـداثـر
21 ـ لكـم ذَخَـرَ اللهُ هـذي الفتـوحَ
مـنَ الـزمـنِ الأولِ الغـابـر
22 ـ وخصَّـكَ مـن بَعْـدِ مـا زرتـه
بهـا لاصطنـاعـكَ فـي الآخـر
23 ـ محبتكـمْ أُلقيـتْ فـي النفـوسِ
بـذكـرٍ لكـم فـي الـورى طـائـر
24 ـ فكـم لهـم عنـد ذكـر الملـوك
بمثلـك مـن مَثَـلٍ سـائـر
25 ـ رفعـتَ مغـارمَ أهـلِ الحجـاز
بـإنعـامَـك الشَّـامِـل الهـامـر
26 ـ وأمَّنـتَ أكنـاف تلـك البـلاد
فهـان السبيـل علـى العـابـر

27 ـ وسحب أياديك فياضة

على وارد وعلى صادر

28 ـ فكم لك بالشرقِ من حامد

وكم لك بالغرب من شاكر

29 ـ وكم بالدعاءِ لكمْ كلَّ عامِ

بمكةَ منْ مُعلنِ جاهر

30 ـ وكم بقيتْ حسبةٌ في الظلومِ

وتلك الذخيرةُ للذاخر

31 ـ يُعَنِّفُ حجَّاجَ بيتِ الإلهِ

ويسطو بهمْ سِطْوَةَ الجائر

32 ـ ويكشفُ عما بأيديهمُ

وناهيكَ من موقفٍ صاغر

33 ـ وقد وقفوا بعدما كوشفوا

كأنهمُ في يدِ الآسر

34 ـ وَيُلْزِمُهُمْ حَلِفاً باطلاً

وَعُقْبى اليمينِ على الفاجر

35 ـ وإن عرضتْ بينهم حرمةٌ

فليس لها عنه مِنْ ساتر

36 ـ أليس يخافُ غداً عَرْضَهُ

على الملكِ القادرِ القاهر

37 ـ وليس على حُرَمِ المسلمين

بتلك المشاهدِ من غائر

38 ـ ولا حــــاضـــرٌ نـــافـــعٌ زجـــرُهُ
فيـــا ذِلَّـــةَ الحـــاضـــرِ الـــزاجـــر

39 ـ ألا نـــاصـــحٌ مُبْلِـــغٌ نُصْحَـــهُ
إلـــى الملـــكِ النـــاصـــرِ الظـــافـــر

40 ـ ظلـــومٌ تَضَمَّـــنَ مـــالَ الـــزكـــاةِ
لقـــد تَعِسَـــتْ صَفْقَـــةُ الخـــاســـر

41 ـ يُسِـــرُّ الخيـــانـــةَ فـــي بـــاطـــنٍ
وَيُبـــدي النصيحـــةَ فـــي ظـــاهـــر

42 ـ فـــأوقـــعْ بـــه حـــادثـــاً إنـــه
يُقَبِّـــحُ أُحْـــدُوثَـــةَ الـــذاكـــر

43 ـ فمـــا للمنـــاكـــرِ مـــن زاجـــرٍ
ســـواكَ وبـــالعـــرف مـــن آمـــر

44 ـ وحـــاشـــاك إنْ لـــم تُـــزِلْ رَسْمَهـــا
فمـــا لـــك فـــي النـــاسِ مـــن عـــاذر

45 ـ وَرَفْعُـــكَ أمثـــالَهـــا مـــوسِـــعٌ
رداءَ فخـــــارِكَ للنـــــاشـــــر

46 ـ وآثـــارُكَ الغـــرُّ تبقـــى بهـــا
وتلـــك المـــآثـــر لـــلآثـــر

47 ـ نـــذرتُ النصيحـــةَ فـــي حقكـــم
وَحُـــقَّ الـــوفـــاء علـــى النـــاذر

48 ـ وَحُبُّـــكَ أنطقنـــي بـــالقـــريـــضِ
ومـــا أبتغـــي صِلَـــةَ الشـــاعـــر

49 ـ ولا كان في ما مضى مكسبي
وبئسَ البضاعةُ للتاجر
50 ـ إذا الشعرُ صار شعارَ الفتي
فناهيكَ من لَقَبٍ شاهر
51 ـ وإن كان نظمي له نادراً
فقد قيل لا حُكْمَ للنادر
52 ـ ولكنَّها خَطَرَاتُ الهوى
تَعِنُّ فتغلبُ للخاطر
53 ـ وأَما وقد زار تلك العلا
فقد فاز بالشَّرف الباهر
54 ـ وإن كان منك قَبُولٌ له
فتلك الكرامةُ للزائر
55 ـ ويكفيه سمعُكَ من سامع
ويكفيه لحظُكَ من ناظر
56 ـ وَيُزْهَى على الروضِ غبَّ الحيا
بما حازَ من ذكرك العاطر

ـ 9 ـ

وقال في السماع من الصوت الحسن: [من الطويل]

1 ـ زيادةُ حُسْنِ الصوتِ في الخلقِ زينةٌ
يـروقُ بهـا لحـنُ القـريـض المحبَّـرِ

2 ـ ومـن لـم يحـركـهُ السمـاعُ بطيبـةٍ
فـذلـك أعمـى القلـب أعمـى التصـور

3 ـ تصيخُ إلى الحـادي الجمـالُ لـواغبـاً
فتـوضِـعُ فـي بيـدائهـا غيـرَ حُسَّـر

4 ـ ولله فـي الأرواح عنـد ٱرتيـاحهـا
إلـى اللحـن سـرٌّ للـورى غيـرُ مظهـر

5 ـ وكـلُّ امـرىءٍ عـابَ السمـاعَ فـإنـه
مـن الجهـلِ فـي عشـوائـه غيـرُ مبصـر

6 ـ وأهـل الحجـا أهـلُ الحجـازِ وكلهـم
رأوه مُبـاحـاً عنـدهـم غيـرَ منكـر

7 ـ وهـام بـه أهـلُ التصـوف رغبـةً
لتهييـج شـوقٍ نـارُهُ لـم تسعّـر

8 ـ فـإن رسـول الله قـد قـال: زينـوا
بـأصـواتكـمْ آيَ الكتـاب المطهـر

9 ـ وزانـتْ لـداوودَ النبـيِّ زبـورَهُ
مـزامـرهُ بـالنـوحِ فـي كـلِّ محضـر

(9) 1 ـ 11 في الذيل والتكملة 5:615 ـ 616.

10 ـ وفي الخلدِ إسرافيلُ يُسْمِعُ أهلهُ
فيسليهمُ المسموعُ عن كلِّ منظرِ
11 ـ فإن أَكُ مُغْرىً بالسماع وحسنه
فحسبي اقتداءً بالكريم ابن جعفر

ـ 10 ـ

ومن شعره رحمه الله وكتب به إلى أبي الحسن بن مرتين:
[من الرمل]

1 ـ لاَ، وَأَعْطَافِ الغُصُونِ المُيَّسِ
وَالصَّبَا تُزْجِي عَلِيلَ النَّفَسِ
2 ـ وَابْتِسَامِ الرَّوْضِ لِلطَّلِّ، وَقَدْ
رَقْرَقَ الدَّمْعَ بِجَفْنِ النَّرْجِسِ
3 ـ مَا رَأَيْنَا يَوْمَ أُنْسٍ مِثْلَهُ
كَانَ أَسْنَى بُغْيَةِ الْمُلْتَمِسِ
4 ـ وَتَلَتْهُ لَيْلَةٌ صَفْحَتُهَا
أَلِفَتْ شَمْلَ انْشِرَاحِ الأَنْفُسِ
5 ـ أَضْحَكَ اللَّهْوُ بِنَا ثَغْرَ المُنَى
فَبَدَتْ سُمْرَتُهَا كَاللَّعَسِ
6 ـ جُمِعَتْ أَطْرَافُهَا مَنْ قِصَرٍ
لِلْفَتَى مَغْرِبُهَا كَالْغَلَسِ

(10) 1 ـ 15 في أعلام مالقة 143 ـ 144.

7 ـ وَسَمَتْ زُهْرُ اللَّيَالِي حِلْيَةً
فَتَحَلَّتْ بِنُجُومِ الأَكْؤُسِ

8 ـ وَابْنَةُ الكَرْمِ عَرُوسٌ تُجْتَلَى
فَتَخَيَّلْ حُسْنَ ذَاكَ المَعْرَسِ

9 ـ نُزْهَةٌ قَادَتْ إِلَيْهَا زَوْرَةٌ
فَاغْتَنِمْهَا نَظْرَةَ المُخْتَلِسِ

10 ـ يَا لَهُ مِنْ مَجْلِسٍ فُزْتُ بِهِ
مِنْ فَتىً شَرَّفَ صَدْرَ الْمَجْلِسِ

11 ـ عِلْقُ مَجْدٍ جَادَ مِنْ خلَّتِهِ
لِيَ بِالْعِلْقِ الخَطِيرِ الأَنْفَسِ

12 ـ لأَبِي عَمْرِو بْنِ مَرْتِينَ عُلىً
أَنْطَقَتْ بِالْمَدْحِ أَهْلَ الخَرَسِ

12 ـ أَرْوَعٌ يُطْلِعُ مِنْ آدَابِهِ
شُهُباً تَجْلُو دَيَاجِي الحِنْدِسِ

14 ـ ذُو بَنَانٍ مِثْلَ شُؤْبُوبِ الحَيَا
وَذَكَاءٍ كَاشْتِعَالِ القَبَسِ

15 ـ مَنْ يُسَابِقْهُ إِلَى مَعْلُوةٍ
رَامَ بَالْعَيْرِ سِبَاقَ الفَرَسِ

ـ 11 ـ

ولاحت له وهو على ظهر البحر جبالُ دانيةَ من جزيرة الأندلس فقال: [من البسيط]

1 ـ لي نحو أرضِ المنى منْ شَرْقِ أندلس
شَوْقٌ يُؤَلِّفُ بينَ الماءِ والقَبَس

2 ـ لاحتْ لنا من ذراها الشمِّ شاهقةٌ
تُدني لِزُهْرِ الدراري كفَّ ملتمس

3 ـ وقد أغذَّتْ بنا في اليم جاريةٌ
سوداءُ لا تستطيع الجريَ في يبس

4 ـ كأنها وعبابُ الماءِ يُزعجها
تنصُّ جيدَ مُراعي اللحظِ مختلس

5 ـ كأن بيض نواحيها إذا انتشرتْ
لواءُ صبحٍ بدا في سُدْفَةِ الغلس

6 ـ تنازعُ الريحُ منها صعبَ مقودها
فترتمي بعنانٍ مُسْمِحٍ سَلِسِ

7 ـ لولا حذاريَ أن أُذكي لها لهباً
زَجَّيتُها برياحِ الشوقِ من نفسي

8 ـ يا ليت شعريَ والآمالُ معوزةٌ
وربما أَمكنتْ يوماً لمختلس

---

(11) 1 ـ 11 في الذيل والتكملة 5:604 ـ 605 والأول في نفح الطيب 2:487.

9 ـ هل يدنونّ مزارُ الشوقِ إن به
ما شئتَ من نُهَزٍ للأنس أو خلس
10 ـ وهل تعودنَّ أيامٌ رشفتُ بها
سلافةَ العيش أَحلى من جنى اللعس
11 ـ حيث أنبسطنا مع اللذاتِ تنقلنا
أيدي المسراتِ من عيدٍ إلى عرس

ـ 12 ـ

وله قصيدة مطوّلة أولها:

لعل بشيرَ الرضى والقبولِ
يعلّلُ بالوصل قلب الخليلِ

ـ 13 ـ

وقال يحرض السلطان صلاح الدين على النظر فيما ظهر من البدع بالمدينة، على دفينها الصلاة والسلام ويشكو إليه ابن شكر الذي كان يأخذ المكس من الحجاج: [من الوافر]

1 ـ صلاح الدينِ أَنت له نظامُ
فما يُخْشَى لعروتِهِ أنفصامُ

(12) البيت في نفح الطيب 2:487.
(13)1 ـ 65 في الذيل والتكملة 5:617ـ620 والبيت 63 في نفح الطيب 2: 384.

2 ـ فـأظهـرْ سُنَّـةَ اللَّـهِ ٱحتسـابـاً
فقـد ظهـرتْ بهـا البـدعُ العظـام

3 ـ وفـي ديـن الهـدى حـدثـت أمـورٌ
بهـا للـديـن حـزن واغتمـام

4 ـ جـديـرٌ أن يقـامَ لهـا ارتمـاضـاً
مـآتـمُ للـورى فيهـا التـدام

5 ـ وكيـف يلـذُّ لـلأجفـانِ نـومٌ
ولـلإسـلام جَفْـنٌ لا ينـام

6 ـ وكيـف تطيـبُ فـي الـدنيـا حيـاةٌ
وطيبـةُ لا يطيـبُ بهـا مقـام

7 ـ بتـربتهـا رسـولُ اللَّـهِ ثـاوٍ
وليـس لأَهلهـا منـهُ ٱحتشـام

8 ـ لـو ٱحتـرمـوه أو هـابـوهُ يـومـاً
لكـان لصَحْبـه معـه ٱحتـرام

9 ـ وهـل يـرضـى صـلاتَهـم عليـه
إذا سُبَّـتْ صحـابتـه الكـرام

10 ـ بـأمِّ المـؤمنيـن قـد استهـانـوا
وللصـديـقِ والفـاروقِ ذامـوا

11 ـ عَـزَوْا بعـد النبـيِّ لهـم ضـلالاً
لقـد ضـلَّ الغـواة ومـا استقـامـوا

12 ـ وَسُنَّتُـهُ أضـاعـوهـا ٱمتهـانـاً
فمـا لهـمُ بـواجبهـا اهتمـام

13 ـ وليس يذلُّ عندهم سوى مَنْ
لـه بجميلِ مذهبها ارتسام

14 ـ وما يرعونَ ذمَّةَ زائريه
وللذميِّ قد يُرعى الذمام

15 ـ ومسجدُهُ المباركُ عادَ سوقاً
لهمْ فيها على اللهو ٱزدحام

16 ـ يُعيدُ به الصلاة مؤذنوه
وما بإمامهم لهمُ ٱئتمام

17 ـ إذا قاموا لها قاموا كسالى
على كرْهٍ كأنهمُ نيام

18 ـ يضيعون المواقيتَ اقتصاداً
ليعدمَ للصلاة به انتظام

19 ـ وأشنع بدعةٍ حدثت صلاةٌ
لسنيٍّ بشيعيٍّ تُقام

20 ـ وروضتُهُ المقدَّسَةُ استباحوا
مهابَتَها فأدمُعُها سِجام

21 ـ إذا حَفُّوا بها لعبوا ازدراءً
وكان لهم بتربتها انتخام

22 ـ وقاموا للسلام وفيه لَغْنٌ
لقد ساء الهدى ذاك المقام

23 ـ ويرقى فوق منبره خطيبٌ
له في الدين خَطْبٌ لا يرام

24 ـ هـو القـاضـي وحسبـك مـن قضـاءٍ
لـــه بـــالجـــورِ فـــي الشـــرع احتكـــام
25 ـ يعيـــبُ علـــى أئمتنـــا هُـــداهـــا
إمـــاميـــون فُسَّـــاقٌ لئـــام
26 ـ يغـــرهـــم لفـــاطمـــةَ انتســـابٌ
ومـــا لهـــمُ بحـــرمتهـــا التئـــام
27 ـ وهـــل يغنـــي انتســـابهـــمُ إليهـــا
وعـــن ديـــنِ الهـــدى لهـــم انصـــرام
28 ـ ونـــوحٌ لابنـــه لـــم يُغـــن شيئـــاً
ولا أَغنـــاه بـــالجبـــلِ اعتصـــام
29 ـ أعـــزَّ اللَّـــه بـــالإســـلام قـــومـــاً
فليـــس لـــه بغيـــرهـــمُ قـــوام
30 ـ فـــذلَّـــتْ فـــرقـــةٌ طَعَنَـــتْ عليهـــم
وهيـــلَ علـــى أُنـــوفهـــمُ الـــرغـــام
31 ـ وكيـــف يعـــزُّ عنـــد اللَّـــه قـــومٌ
وديـــنُ اللَّـــه بينهـــم يُضـــام
32 ـ نقـــومُ إلـــى الصـــلاةِ وهـــم قعـــودٌ
ويعلـــو عنـــدهـــا لهـــم الكـــلام
33 ـ بلعْـــنٍ صُمَّـــتِ الآذانُ منـــه
وَسَـــبٌ للصحـــابـــةِ يُسْتـــدام
34 ـ وتُقـــرأ بيـــن أيـــديهـــم جهـــاراً
تـــوالـــفُ كلهـــا زورٌ سُخـــام

35 ـ ويسعى بين أيدينا اعتراضاً
لقطع صلاتنا منهم طغام
36 ـ فلا المأمومُ يدري ما يصلي
ولا يدري بما صلى الإمام
37 ـ تراهمْ يسخرونَ بنا احتقاراً
وللأحقادِ عندهُمُ احتدام
38 ـ ويعتقدوننا نَجَساً خبيثاً
فليس لهم لجانبنا انضمام
39 ـ يرون الجمعَ للأُختين حِلاً
وَتُعْطَى البنت ما يرثُ الغلام
40 ـ وما التجميعُ عندهم بشرعٍ
لقد تاهوا بباطلهم وهاموا
41 ـ يقيمون الصلاةَ وهم فرادى
لقد شَرَدوا كما شرد النعام
42 ـ وليس لهمْ من الإسلام حظٌّ
ولو صلًّوا مدى الدنيا وصاموا
43 ـ وَمَنْ قد خالف السَّلَفَ ابتداعاً
أَتنفعُهُ الصلاةُ أو الصيام
44 ـ لقد مرقوا من الدينِ اعتداءً
كما مرقتْ من المرمى السهام
45 ـ لهمْ من أهل مذهبهم شيوخٌ
أقاموا بين أَظهرهم وداموا

46 ـ روافضُ أحدثوا بِدَعاً وشادوا
قواعدها فليس لها انهدام
47 ـ فكم غَمرٍ أضلُّوا واستزلّوا
فَحُمَّ على الضلالِ له الحمام
48 ـ وكم غِرٍّ ببذلِ المالِ غَرُّوا
فكانَ على الحُطَامِ له انحطام
49 ـ ومغويهمْ فقيهُ الرفضِ سَيْفٌ
أتاه باسِمِه الموتُ الزؤام
50 ـ وفرَّ إليهمُ منكمْ حسينٌ
مخافةَ أن يُطَوِّقَهُ الحسام
51 ـ فأضرمَ بالمدينةِ نارَ غيٍّ
أبتْ ألاّ يزالَ لها اضطرام
52 ـ وأوسعَ أهلها براً وبُراً
فكان لهمْ على الغيِّ اقتحام
53 ـ فما يُرْجى لهم أبداً فلاحٌ
ولا رُشْدٌ وهل يُرجى الجهام
54 ـ وما لهمُ إلى خير مضاءٌ
مَدَى الدنيا وهل يَمْضي الكهام
55 ـ لعمرك إنهم داءٌ عُضَالٌ
وما بسوى الحسامِ له انحسام
56 ـ ومن لم يرضَ حكمَ الله شرعاً
فما دَمُهُ لسافكهِ حرام

57 ـ إذا انحطَّ الرعيةُ في هواها
ولم تُرْدَعْ فراعيها يلام

58 ـ وإن نشأتْ عوارضُ للأعادي
فبرقُ السيف أولى ما يشام

59 ـ فأمضِ الهمةَ العليا إليهم
وجاهدْ أيها الملكُ الهمام

60 ـ وَأرضِ المصطفى في صاحِبَيْه
بنصرٍ لا يُفَلُّ له اعتزام

61 ـ أتاك رضاهُ عفواً فاغتنْمهُ
لما ترجو وحقٌّ له اغتنام

62 ـ أيقبلُ منك عند اللّه عذرٌ
وما لك من أعاديه انتقام

63 ـ وما نال الحجازُ بكم صلاحاً
وقد نالتْهُ مصرٌ والشآم

64 ـ ولولا هيبةٌ لدفينهمْ لم
تُحَجَّ الكعبةُ البيتُ الحرام

65 ـ فإن أسلمتَ دينَ اللّه فيها
على الدنيا وساكنها السلام

ومن شعره يمدح أمير المؤمنين أبا يعقوب ابن أمير المؤمنين حين هجرته إلى الحضرة الإمامية مراكش وذلك في رمضان المعظم سنة أربع وستين وخمسمائة : [من الكامل]

1 ـ بُشْرَايَ قَدْ (أَبْصَرْتُ) خَيْرَ إِمَامِ
فِي حَضْرَةِ التَّقْدِيسِ وَالإِعْظَامِ

2 ـ أَمَا وَقَدْ أَلْقَتْ إِلَيْهِ (يَدُ) النَّوَى
فَلأَغْفِرَنَّ جِنَايَةَ الأَيَّامِ

3 ـ وَلَوَ انَّنِي شِئْتُ انْتِصَاراً لَمْ أَكُنْ
فِيهِنَّ إِلاَّ فَاقِدَ الأَحْكَامِ

4 ـ أَنْهَضْتُ عَزْمِي فَاسْتَطَارَ مُصَمِّماً
فَكَأَنَّنِي أُنْبِتُّ غَرْبَ حُسَامِ

5 ـ أَهْجَعْتُ نَوْمِي لاَبِساً خِلَعَ الدُّجَى
وَخْدِي، (فَمَا) عَرَّجْتُ بِالنُّوَّامِ

6 ـ هِيَ (هَجْعَةٌ) هَجَرَتْ لَهَا سِنَةُ الكَرَى
فَالْجَفْنُ لَمْ يَطْعَمْ لَذِيذَ مَنَامِ

7 ـ حُمَّ الرَّدَى فَاخْتَرْتُ رِيًّا كَأْسِهِ
وَالْحُرُّ رَيَّاهُ بِحَرِّ حِمَامِ

8 ـ لَمْ أَكْتَرِثْ لِشَتَاتِ شَمْلِي بِالنَّوَى
فَكَأَنَّمَا لِلشَّمْلِ جَمْعُ نِظَامِ

---

(14)1 ـ 21 في أعلام مالقة 139 ـ 140.

9 ـ شَـوْقـاً إلَـى دَارِ الخِـلافَـةِ إنَّهَـا
دَارُ الْهُـدَى وَمُعَـرَّسُ الإِسْـلاَمِ

10 ـ مِـنْ كُـلِّ مُعْطِيَـةٍ عَلـى علاَّتِهَـا
وَخْـداً، لَهَـا فِـي الشَّهْـرِ سَيْـرُ العَـامِ

11 ـ جَـبَّ السُّـرَى مِنْهَـا سَنَـامَ فقَـارِهَـا
فَكَـأَنَّهَـا خُلِقَـتْ بِغَيْـرِ سَنَـامِ

12 ـ فَـأَتَـتْ كَـأَمْثَـالِ القِسِـيِّ ضَـوَامِـراً
ولَـرُبَّمَـا مَـرقَـتْ مُـرُوقَ سِهَـامِ

13 ـ وَافَـتْ أَمِيـرَ المُـؤْمِنِيـنَ بِنَـا عَلَـى
شَحَـطِ النَّـوَى، فَلَهَـا يَـدُ الإِنْعَـامِ

14 ـ لَـوْ أُنْعِلَـتْ حُـرَّ الخُـدُودِ كَـرَامَـةً
لَـمْ نَقْـضِ وَاجِبَهَـا مِـنَ الإِكْـرَامِ

15 ـ وَلَـوِ اسْتَطَعْنَـا لَـمْ تَكُـنْ تَطَـأُ (الثَّرَى)
إلاَّ عَلَـى الأَرْوَاحِ والأَجْسَـامِ

16 ـ كَيْمَـا تُـرَى مَـا دَامَ إيضَـاعٌ لَهَـا
لاَ تَشْتَكِـي مِـنْ وَضْـعِ خُـفٍّ دَامِ

17 ـ وَيَـوَدُّنَـا لَـوْ لَـمْ نُكَلِّفْهَـا السُّـرَى
لِيَكُـونَ هَـذَا الحَـقُّ لِـلأَقْـدَامِ

18 ـ حَتَّـى إذَا رُفِـعَ الحِجَـابُ بَـدَا لَنَـا
مَلِـكٌ، وَقُـلْ إنْ شِئْـتَ بَـدْرُ تَمَـامِ

19 ـ فَتَسَكَّـنَ الجَـأْشُ الطَّمُـوحُ عُبَـابُـهُ
بِطَـلاقَـةٍ مِـنْ وَجْهِـهِ البَسَّـامِ

20 ـ وَدَنَا الجَمِيعُ لِلَثْمِ رَاحَتِهِ التِي
هِيَ مَعْدِنُ الأَرْزَاقِ وَالأَقْسَامِ

21 ـ وَانْهَلَّ بَعْدَ تَعَلّلٍ بَسْطُ المُنَى
فَتَلاَ وَمِيضَ البَرْقِ صَوْبُ غَمَامِ

وهي طويلة.

ـ 15 ـ

وقال يهنىءُ حجاجاً ٱجتمعَ بهم في مكة ـ شرفها الله ـ ويتشوق إليهم [من الرمل]:

1 ـ يا وفود الله فزتم بالمنى
فهنيئاً لكمُ أَهلَ مِنى

2 ـ قد عرفنا عرفاتٍ معكم
فلهذا بَرّحَ الشوقُ بنا

3 ـ نحن بالمغربِ نُجري ذكركمْ
فغروبُ الدمعِ تجري هتنا

4 ـ أنتم الأحبابُ نشكو بعدكمْ
هل شكوتمْ بُعدْنا منْ بَعْدنا

---

(15) 1 ـ 15 في الذيل والتكملة 614:5 والأبيات 1 ـ 3، 12 ـ 15، 4، 5، 6، في نفح الطيب 486:2 والأبيات 1 ـ 3 في المغرب 385:2، وجميع الأبيات ما عدا السادس في قلائد الجمان 126:6.

5 ـ علَّنـــا نلقَـــى خيـــالاً منكـــمُ
بلـــذيـــذِ الـــذكـــر وهْنـــاً علَّنـــا

6 ـ لـــو حنـــا الـــدهـــرُ علينـــا لقضـــى
بـــاجتمـــاعٍ بكـــمُ فـــي المنحنـــى

7 ـ لاح بـــرقٌ مـــوهنـــاً مـــن أرضكـــمْ
فلعمـــري مـــا هنَـــا العيـــش هنـــا

8 ـ صَـــدَعَ الليـــلَ وميضـــاً وسنـــاً
فـــأبينـــا أن نـــذوقَ الـــوسنـــا

9 ـ كـم جنـى الشـوقُ علينـا مـن أسـىً
عـــاد فـــي مـــرضـــاتكـــمْ حلـــوَ الجنـــى

10 ـ ولكـــمْ بـــالخيـــفِ مـــن قلـــبٍ شـــجٍ
لـــم يـــزل خـــوفَ النَّـــوى يشكـــو الضنـــى

11 ـ مـــا ارتضـــى جـــانحـــةَ الصـــدرِ لـــه
سكنـــاً منـــذُ بـــه قـــد سَكَنـــا

12 ـ فينـــاديـــه علـــى شَحْـــطِ النـــوى
مَـــنْ لنـــا يـــومـــاً بقلـــبٍ ملَّنـــا

13 ـ سـرْ بنـا يـا حـاديَ العيـسِ عسـى
أَنْ نـــلاقـــي يـــومَ جَمْـــعٍ سِـــرْبَنـــا

14 ـ مـا عَنَـى داعـي النـوى لمـا دَعَـا
غيـــرَ صـــبٍّ شفَّـــه بـــرحُ العنـــا

15 ـ شِـــمْ لنـــا البَـــرقَ إذا هـــبَّ وَقُـــلْ
جَمَـــعَ اللَّـــه بجمـــعٍ شملنـــا

ـ 16 ـ

وقال مما أنشده بمسجد بالإسكندرية [من الكامل]:

1 ـ يـا زائـراً لـم يقـضِ أن ألقـاهُ
دهـرٌ يعـوق عـن الـذي أهـواه

2 ـ ضنَّ الزمان وقد سمحتَ فلم يكن
مـن زرتُـهُ للحيـن فـي مغنـاهُ

3 ـ يـا ويحـه لعظيـم أُنـسٍ فـاتـه
إن لـم يَـذُبْ كمـداً فمـا أقسـاه

4 ـ لمـا وجـدتُ فِنـاءَ داري عـاطـراً
أيقنـتُ أنـك قـد وطئـت ثـراه

5 ـ وطلبـتُ للتقبيـل فيـه مـوضعـاً
فـإذا الحيـا المنهـلُّ قـد عفَّـاه

6 ـ لـم يبـقَ من أثـرٍ لـوطئك فـي الثرى
فجعلـتُ ألثـم حيـث نـمَّ شـذاه

7 ـ حتـى الغمـامُ يعـوق عمـا أبتغـي
يـا مـا أكـابـده ومـا ألقـاه

---

(16) 1 ـ 7 في قلائد الجمان 6:127 ـ 128.

2 . المقطعات ونتف من قصائد في الإخوان والنصائح وغير ذلك

ـ 1 ـ

ومن شعره [من الوافر]:

1 ـ أَبَا يَحْيَى أَمَا فِي الرَّيِّ فَضْلٌ
تَجُودُ بِهِ فَقَدْ طَالَ الظَّمَاءُ

2 ـ فَأَطْلِعْهَا لَنَا حَمْرَاءَ نُبْصِرْ
بِهَا شَفَقاً تَضَمَّنَهُ الإِنَاءُ

3 ـ وَلَيْسَ بِلَوْنِهَا لَكِنْ أُغِبَّتْ
زِيَارَتُهَا فَخَامَرَهَا الحَيَاءُ

ـ 2 ـ

وأهدى إليه بعض أصحابه بالقاهرة موزاً فكتب إليه: [من المجتث]

1 ـ يا مهديَ الموزِ تبقى
وميمُهُ لكَ فاءُ

2 ـ وزايُهُ عن قريبٍ
لمن يناويكَ تاء

(1) 1 ـ 3 في أعلام مالقة: 144.
(2) 1، 2 في الذيل والتكملة 620:5 ونفح الطيب 384:2.

— 3 —

ومن شعره: [من الكامل]

1 ـ بِأَبِي رَشاً سَفَكَتْ دَمِي أَلْحَاظُهُ
وَسَبَى بِرَائِقِ حُسْنِهِ الأَلْبَابَا

2 ـ مَنْ كَانَ يُنْكِرُ سَفْكَهُ فَلْيَأْتِهِ
يَرْمُقْ دَمِي فِي رَاحَتَيْهِ خِضَابَا

— 4 —

وقال: [من الوافر]

1 ـ يُنيلُ المرءَ تبصرة وذكرى
إذا ما ابيضَّ فُوْداهُ وشابا

2 ـ وما يُرْجَى لتوبته قبولٌ
إذا مزج الرياءَ بها وشابا

— 5 —

وقال سنة (585): [من المتقارب]

1 ـ صحبتُ الزمانَ وقابلتُهُ
بصبرٍ جميل إذا الخطبُ نابا

---

(3) 1 ـ 2 في أعلام مالقة: 145.

(4) 1، 2 في قلائد الجمان 127:6.

(5) الأول في قلائد الجمان 128:6 والثاني والثالث في ألف باء: 276.

2 ـ وكم رام هضمي فما هاضَ لي
جناحاً ولا فلَّ للصبر نابا

3 ـ كذلك كنا قديماً إذا ما
دعينا إلى خطة الضيم نابى

ـ 6 ـ

ولمّا وصل بغداد تذكر بلده، فقال ولعلّه تمثل به: [من الطويل]

1 ـ سقى الله بابَ الطاق صَوْبَ غمامة
وردَّ إلى الأوطانِ كلَّ غريبِ

ـ 7 ـ

وقال: [من المجتث]

1 ـ أقصر عن الغيّ كم ذا
تُدْعَى لرشدٍ وتأبَى

2 ـ لا يسلم العبد إلا
إن استقام وتابا

---

(6) البيت في نفح الطيب 386:2.

(7) 1، 2 في قلائد الجمان 128:6.

ـ 8 ـ

وقال وهو مما كتب به من الديار المصرية لأبي محمد عبدالله بن التميمي البجاني المعروف بابن الخطيب : [من المتقارب]

1 ـ بسبتَــةَ لــي سَكَــنٌ فــي الثَّـرى
وخِـــلٌّ كـــريـــمٌ إليهـــا أتـــى

2 ـ فلـــو أستطيـــع ركبـــت الهـــوا
فـــزرت بهـــا الحـــيَّ والميِّـــا

ـ 9 ـ

وله : [من الخفيف]

1 ـ لــي صــديــقٌ خســرتُ فيــه ودادي
حيــن صــارت ســلامتــي منــه ربحــا

2 ـ حَسَــنُ القــول سيء الفعــل كـالجـزّ
ارِ سمَّـــى وأتبـــع القـــول ذبحـــا

ـ 10 ـ

ومن شعره : [من المتقارب]

1 ـ أَلاَ رُبَّ عِـــرْضِ امْـــرِىءٍ مُسْلِـــمٍ
بِغَيْـــرِ لِسَـــانِـــكَ لَـــمْ يُسْتَبَـــحْ

---

(8) 1، 2 في نفح الطيب 2:488.

(9) 1، 2 في نفح الطيب 2:488 ـ 489.

(10) 1 ـ 3 في أعلام مالقة: 145.

2 ـ إِذَا كُنْــتَ فِــي النَّــاسِ ذَا غِيْبَــةٍ
تُبِيــحُ بِهَــا مُنْكَــراً لَــمْ يُبَــحْ

3 ـ فَلَسْـــتَ بِـــأَوَّلِ ذِئْــبٍ عَــوَى
وَلَسْـــتَ بِـــأَوَّلِ كَلْـــبٍ نَبَـــحْ

ـ 11 ـ

وقال: [من الطويل]

1 ـ إلـى الله أشكـو مـا تكـنّ الجـوانـح
تقــاطعــتِ الأرحــام حتــى الجــوارحُ

2 ـ فلســت تـرى إلا قلـوبـاً وألسنـاً
مخــالفــةً هـــذي لهـــذي كـــواشـــح

3 ـ فللقلــب عقـــد واللســـان بنطقـــه
يخـــالفـــه والفعـــل للكـــلّ فـــاضـــح

ـ 12 ـ

وقال: [من السريع]:

1 ـ قــد أحــدث النــاسُ أمــوراً فــلا
تعمـــل بهـــا إنـــي امـــرؤ نـــاصـــحُ

---

(11) 1 ـ 3 في رحلة العبدري: 98.
(12) 1، 2 في نفح الطيب2:492.

2 ـ فمـــا جمـــاع الخيـــر إلا الـــذي
كـــان عليـــه السلـــف الصـــالـــح

ـ 13 ـ

ومن شعره (وقد هَجَرَهُ مَحْبُوبه): [من السريع]

1 ـ يَـــا رَشَـــأً حَظِّـــي إِبْعَـــادُهُ
وَحَـــظُّ غَيْـــرِي مِنْـــهُ إِسْعَـــادُهُ

2 ـ خِبْـتُ، وَكُـلٌّ نَـالَ مِنْـكَ الْمُنَـى
أَسْعَـــدُ أَهْـــلِ الحُـــبِّ أَوْغَـــادُهُ

3 ـ بِـــي ظَمَـــأٌ بَـــرْحٌ وَلَكِنَّـــهُ
زُهِّـــدَ فِـــي الْمَـــوْرِدِ وُرَّادُهُ

ـ 14 ـ

ومن شعره فيه رحمه الله: [من الكامل]

1 ـ أفَقِيهَنَـا المُسْتَـنَّ دِينـاً والـذِي
شَهِـدَتْ لَـهُ بِـالْفَضْـلِ مِنْـهُ شَـوَاهِـدُ

2 ـ لَـوْ تُبْصِـرُ ابْـنَ سَعَـادَةٍ ونَـدِيمَـهُ
قَـدْ حَـلَّ بَيْنَهُمَـا الغَـزَالُ الشَّـارِدُ

3 ـ لَـرَأَيْـتَ مِـنْ ثِقَـلٍ عَلَيْـكَ وَخِفَّـةٍ
جَبَلَيْـــنِ بَيْنَهُمَـــا نَسِيـــمٌ رَاكِـــدُ

---

(13) 1 ـ 3 في أعلام مالقة: 145 وزاد المسافر (رقم: 34) ص: 328.
(14) 1 ـ 3 في أعلام مالقة: 146. وزاد المسافر (رقم: 34) ص: 329.

ـ 15 ـ

وأَهْدَى إليه صهْرُهُ الوزيرُ أبو جعفر الوَقشِي سيفاً، وكتب معه: [من المتقارب]

بَعَثْـــتُ إِلَيْـــكَ بِخِـــلٍّ كَـــرِيـــمٍ
يَمُـــدُّ إِلَيْـــك ذِراعَ النجـــادِ

فَـــوَشِّـــحْ بِـــهِ مِعْطَفَيْـــكَ إِذَا مَـــا
دُفِعْـــتَ إِلَـــى جَـــوْبِ بِيـــدِ البِـــلاَدْ

وَسِـــرْ نَـــافِـــذاً حَـــاكِيـــاً مَضْـــرِبَيْـــهِ
مُلَقّـــىً مِـــنَ السَّعْـــدِ فَـــوْقَ المُـــرَادْ

وَأُبْ تَحْـــتَ عَـــرْضٍ كَثِيـــفٍ كَمَـــا
آبَ فِـــي الْعُمْـــرِ يَـــوْمُ الجِـــلاَدْ

فراجعه أبو الحسين رحمة الله عليهما: [من المتقارب]

1 ـ لَـكَ الشُّكْـرُ شَفَّعْـتَ بِيضَ الأَيَـادِي
بِـــأَبْيَـــضَ صَـــافَحَنِـــي بِـــالنِّجَـــادْ

2 ـ تَهَـــادَى بَـــأَرْبَعَـــةٍ مِثلِـــهِ
حِـــدَادٍ لَبِسْـــنَ حِـــدَادَ المِـــدَادْ

3 ـ سُيُـــوفٌ مِـــنَ النَّظْـــمِ مَطْبُـــوعَـــةٌ
مُفَلَّلَـــةٌ عَـــرْكَ كُـــلِّ انْتِقَـــادْ

4 ـ أَتَتْنِـــيَ فِـــي الطِّـــرْسِ مَسْلُـــولَـــةً
فَـــأَغْمَـــدْتُهَـــا فِـــي سَـــوَادِ الفُـــؤَادْ

---

(15) أبيات الوقشي والجواب عنها في أعلام مالقة: 143.

5 ـ فَــأَعْــدَدْتُ هَــذِي لِيَــوْمِ الفَخَــارِ
وَأَعْـــدَدْتُ هَـــذَا لِيَـــوْمِ الجِـــلَادْ

ـ 16 ـ

وقال يخاطب الصدر الخُجَنْدي : [من السريع]

1 ـ يـا مَـنْ حَـوَاه الـديـنُ فـي عصـرِهِ
صَـــدْراً يحـــلُّ العلـــمُ منـــه فـــؤادْ

2 ـ مــاذا يــرى سيّــدنــا المــرتَضَــى
فـــي زائـــرٍ يخطـــبُ منـــه الـــوداد

3 ـ لا يبْتغـــي منـــه ســوى أحــرفٍ
يعتـــدُّهـــا أشـــرفَ ذُخـــر يفـــاد

4 ـ تـــرسُمُهـــا أنملُـــهُ مثـــلَ مـــا
نَمّـــقَ زَهْـــرَ الـــروضِ كـــفُّ العهـــاد

5 ـ فـي رقعــةٍ كــالصبــح أهــدى لهــا
يـــدَ المعـــالـــي مســـكُ ليـــلِ المـــداد

6 ـ إجـــازةً يُـــورِثُنِيهـــا العُـــلا
جـــائـــزةً تبقـــى وتفنـــى البـــلاد

7 ـ يستصحـــبُ الشكـــرَ خـــديمـــاً لهـــا
والشكـــرُ لـــلأمجـــادِ أسنـــى عتَـــاد

---

(16) 1 ـ 7 في نفح الطيب2:382.

فأجابه الصدر الخُجَنْدي:

لـــكَ اللهُ مِـــنْ خـــاطـــبٍ خُلّتـــي
ومـــن قـــابِـــسٍ يجتـــدي سِقْـــطَ زَنْـــدي

أجَـــزْتُ لَـــهُ مـــا أجـــازُوهُ لـــي
ومـــا حَـــدَّثـــوه ومـــا صَـــحَّ عنـــدي

وكـــاتِـــبُ هـــذي السّطُـــور الّتـــي
تـــراهُـــنَّ عبـــدُ اللطيـــفِ الخُجَنْـــدي

— 17 —

ومن شعره قوله: [من مخلع البسيط]

1 ـ يـــا خَيْـــرَ مـــولـــى دعـــاه عَبْـــدٌ
أعْمَـــلَ فـــي البـــاطـــلِ اجتهـــادَهْ

2 ـ هَـــبْ لـــيَ مـــا قـــد علمـــتَ منّـــي
يـــا عـــالـــمَ الغيـــبِ والشهـــادهْ

— 18 —

وقال متشوقاً لأهل العقيق: [مخلع البسيط]

1 ـ سكـــانَ وادي العقيـــق شـــوقـــي
إليكـــــمُ فـــــي البعـــــاد زادا

---

(17) 1، 2 في نفح الطيب 490:2.

(18) 1 ـ 4 في الذيل والتكملة 615:5.

2 ـ ونظـــرةٌ منكـــم المنـــى لـــو
أهـــديتمـــوهـــا إلـــيَّ زادا

3 ـ عهـــدٌ لنـــا عنـــدكـــمْ حميـــدٌ
يـــا ليتـــه بـــالـــوصـــالِ عـــادا

4 ـ صـــادقَ فيـــه الكـــرى جفـــونـــي
وبعـــدكـــم للجفـــونِ عـــادى

ـ 19 ـ

وقال: [من المنسرح]

1 ـ تـــأنَّ فـــي الأمـــر لا تكـــن عجـــلاً
فمـــن تـــأنـــى أصـــاب أو كـــادا

2 ـ وكـــن بحبـــل الإلـــه معتصمـــاً
تـــأمـــنُ مـــن بغـــي كيـــد مـــن كـــادا

3 ـ فكـــم رجـــاه فنـــال بغيتـــه
عبـــدٌ مســـيءٌ لنفســـه كـــادا

4 ـ ومـــن تَطُـــلْ صحبـــةُ الـــزمـــان لـــه
يلـــقَ خطـــوبـــاً بـــه وأنكـــادا

---

(19) 1 ـ 4 في سير الذهبي 22:46 ـ 47.

ـ 20 ـ

ومن شعره: [من الكامل]

1 ـ عُلِّقْتُـــهُ كَـــالسَّيْــفِ رَاَعَ بَهَـــاؤُهُ
لَكِـــنْ بِغَيْـــرِ جَـــوَانِحِـــي لَـــمْ يُغْمَـــدِ

2 ـ عَـــافُـوا العِـذَارَ بِصَفْحَتَيْـهِ وَمَـا دَرَوْا
أَنَّ الْفِـــرِنْـــدَ يَـــزِيـــنُ كُـــلَّ مُهَنَّـــدِ

ـ 21 ـ

ولم يزل دأبه تمني الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام؛ وفي ذلك يقول: [من المتقارب]

1 ـ هنيئـــاً لمـــن حـــجَّ بيـــتَ الهـــدى
وحـــــطَّ عـــــنِ النفـــــسِ أوزارَهـــــا

2 ـ وإنَّ السعـــــادةَ مضمـــــونـــــةٌ
لمـــــن حـــــلَّ طَيْبَـــــةَ أو زارهـــــا

(20) 1، 2 في أعلام مالقة: 144.

(21) 1، 2 في الذيل والتكملة 5:664 والإحاطة 2:236. وجذوة الاقتباس: 280.

— 22 —

ومن شعره رحمه الله في طاق مجلس: [من المنسرح]

1 ـ أَصْبَحْتُ مِثْلَ الجَنَانِ فِي الصَّدْرِ
أَصُونُ مَا أَحْتَوِيهِ كَالسِّرِّ

2 ـ فِي خَيْرِ قَصْرٍ تُرِيكَ سَاحَتُهُ
فِي مَطْلَعِ الشَّمْسِ مَطْلَعَ البَدْرِ

3 ـ كَأَنَّنِي فِي جِدَارِ مَجْلِسِهِ
عَيْنٌ وَبَابِيَ جَفْنٌ بِلاَ شَفْرِ

4 ـ فَلْتَدْعُ يَا مُبْصِرِي لِسَاكِنِهِ
بِالسَّعْدِ وَالْمُلْكِ آخِرَ الدَّهْرِ

— 23 —

وقال في الولاة وأحوالهم: [من السريع]

1 ـ مَنْ كَبُرَتْ عن قدرِهِ خُطَّةٌ
دَاخَلَهُ من أجلها الكِبْرُ

2 ـ وَمَنْ سمتْ همَّتُهُ لم يكنْ
لخطةٍ في نفسِه قدر

3 ـ ولايةُ الإنسان سكرٌ فما
دامتْ له دام به السكر

---

(22) 1 ـ 4 في أعلام مالقة: 142.

(23) 1 ـ 5 في الذيل والتكملة 5:613.

4 ـ مَغَـــايـــظُ الـــدنيـــا وأربـــابهـــا
ليـــــس عليهـــــا لامـــــرىءٍ صبـــــر
5 ـ دعهـــمْ مـــع الـــدهـــرِ وأحـــداثـــه
حتـــى تـــرى مـــا يصنـــعُ الـــدهـــر

ـ 24 ـ

وقوله: [من الطويل]

1 ـ مـنَ اللهِ فـاسـألْ كـلَّ شـيءٍ تـريـدُهُ
فمـــا يملـــكُ الإنســـانُ نفعـــاً ولا ضـــرا
2 ـ ولا تتـــواضـــعْ للـــولاةِ فـــإنهـــم
مـــن الكبـــر فـــي حـــالٍ تمـــوج بهـــم سكـــرا
3 ـ وإيـــاكَ أن تـــرضـــى بتقبيـــلِ راحـــةٍ
فقـــد قيـــل فيهـــا إنهـــا السجـــدةُ الصغـــرى

ـ 25 ـ

وقال: [من الرمل]

1 ـ يحســـبُ النـــاسُ بـــأنّـــي مُتْعَـــبٌ
فـــي الشّفـــاعـــاتِ وتكليـــف الـــورى

---

(24) 1 ـ 3 في الذيل والتكملة 613:5 ونفح الطيب 491:2.
(25) 1 ـ 3 في النفح 488:2.

2 ـ والـذي يُتْعِبُهُـمْ مِـن ذاكَ لـي
راحـةٌ فـي غيـرهـا لـن أُفْكِـرا

3 ـ وبـودّي لـو أُقَضّـي العمـرَ فـي
خـدمـةِ الطـلاّب حتـى فـي الكـرى

ـ 26 ـ

وقال في حب النبي، ﷺ، وأهل بيته الكريم وصحبه، رضي الله عنهم: [من الطويل]

1 ـ أُحِبُّ النبـيَّ المصطفى وابـنَ عمـه
عليـاً وسبطيـه وفـاطمـةَ الـزهـرا

2 ـ هُـمُ أَهْـلُ بيـتٍ أَذْهـبَ الرجسَ عنهـم
وأَطلعهـم أفـقُ الهـدى أنجمـاً زهـرا

3 ـ مـوالاتهـم فـرضٌ علـى كـلِّ مسلـمٍ
وحبهـمُ أسنـى الـذخـائِـر لـلأخـرى

4 ـ ومـا أنـا للصحـبِ الكـرام بمبغـضٍ
فـأنـي أرى البغضـاءَ فـي حقهـم كفـرا

5 ـ هُـمُ جـاهـدوا فـي الله حـقَّ جهـاده
وهـم نصـروا ديـنَ الهـدى بـالظبـا نصـرا

6 ـ عليهـم سـلامُ الله مـا دام ذكـرهـم
لـدى المـلأ الأعلـى وأَكْـرِمْ بـه ذكـرا

---

(26) 1 ـ 6 في الذيل والتكملة 5:616.

ـ 27 ـ

وقال وقد تذكر طيبة على ساكنها الصلاة والسلام: [من المجتث]

1 ـ يـــا أهـــلَ طيبـــةَ قلبـــي
عَـــنْ منهـــجِ الصبـــرِ جـــارا

2 ـ أشكـــو إليكـــمْ زمـــانـــاً
علـــيَّ بـــالبيـــنِ جـــارا

3 ـ وبعـــدكـــمْ لســـتُ أرضـــى
مـــن البـــريـــةِ جـــارا

4 ـ ودمـــعُ عينـــي عليكـــم
لأدمـــعِ المـــزنِ جـــارى

ـ 28 ـ

وقال: [من الوافر]

1 ـ أراك مـــن الحيـــاة علـــى اغتـــرارِ
ومـــالـــك بـــالإنـــابـــة مـــن بـــدار

2 ـ وتطمـــع فـــي البقـــاء وكيـــف تبقـــى
ومـــا الـــدنيـــا لســـاكنهـــا بـــدار

---

(27) 1 ـ 4 في الذيل والتكملة 615:5.

(28) 1، 2 في قلائد الجمان: 127.

ـ 29 ـ

وقال رحمه الله تعالى: [من المتقارب]

1 ـ وإنّـــي لأوثـــر مَـــنْ أصطفـــي
وأُغْضِـــي عَلَـــى زَلّـــةِ العـــاثـــرِ

2 ـ وأهـــوى الـــزيـــارةَ ممّـــن أُحـــبُّ
لأعتقـــدَ الفضـــلَ للـــزائـــرِ

ـ 30 ـ

ومن شعره في جميل وقَدْ جَلَسَ بَيْنَ ثقيلين: [من الكامل]

1 ـ لَـوْ كُنْـتَ تُبْصِـرُ مُنْـذُ يَـوْم قَـدْ نَـأَى
تَيْسَيْـــنِ ضَمَّهُمَـــا، وظَبْيـــاً مَجْلِـــسُ

2 ـ لَعَجِبْـتَ قُبْحـاً مِنهُمَـا، وَمَـلاحَـةً
مِنْـــهُ، وَقُلْـــتَ: حَظِيـــرَةٌ أَمْ مَكْنِـــسُ

ـ 31 ـ

وقال: [من الخفيف]

1 ـ أيهـا المستطيـل بـالبغـي أقصـر
ربمـا طـأطـأ الـزمـان الـرؤوسـا

---

(29) 1 ـ 2 في نفح الطيب 490:2.

(30) 1، 2 في أعلام مالقة: 146، وزاد المسافر (رقم: 34) ص: 329.

(31) 1، 2 في نفح الطيب 492:2 ورحلة العبدري: 71.

2 ـ وتـــذكـــر قـــولَ الإلـــه تعـــالـــى
«إن قـــارون كـــان مـــن قـــوم مـــوســـى»

ـ 32 ـ

وقال: [من الطويل]

1 ـ أقـول وقـد حـان الـوداع وأسلمتْ
قلـوبٌ إلـى حكـم الأسـى ومـدامـعُ

2 ـ أيـا ربّ أهلـي فـي يـديـك وديعـة
ومـا عـدمـتْ صَـونـاً لـديـكَ الـودائـع

ـ 33 ـ

وقال يخاطب أبا عمران الزاهد بإشبيلية: [من الوافر]

1 ـ أبـــا عمـــران قـــد خلّفـــتُ قلبـــي
لـــديـــك وأنـــت أهـــلٌ للـــوديعَـــةْ

2 ـ صحبـتُ بـك الـزمـان أخـا وفـاءٍ
فهـــا هـــو قـــد تنمَّـــرَ للقطيعـــة

---

(32) 1، 2 في مقدمة الرحلة: 17 عن نفح الطيب 2:485.
(33) 1، 2 في نفح الطيب 2:487 ـ 488.

— 34 —

وقال رحمه الله تعالى: [من البسيط]

1 ـ عجبتُ للمرءِ في دنياه تُطْمِعُه ... في العيشِ والأجلُ المحتومُ يَقْطعهُ

2 ـ يُمْسي ويُصبحُ في عَشْواءَ يخبطها ... أعمى البصيرةِ والآمالُ تخدعهُ

3 ـ يَغْترُّ بالدهرِ مسروراً بصحبته ... وقَدْ تيقَّنَ أنَّ الدهرَ يصرعهُ

4 ـ ويجمعُ المالَ حرصاً لا يفارقهُ ... وقد درى أنهُ للغيرِ يجمعهُ

5 ـ تراهُ يُشْفِقُ من تضييع درهمه ... وليس يُشْفِقُ من دينٍ يضيِّعهُ

6 ـ وأسوأُ الناسِ تدبيراً لعاقبةٍ ... مَنْ أنفقَ العمرَ فيما ليس ينفعهُ

— 35 —

ومن شعره في مِنْقَلَة: [من الكامل]

1 ـ أَنَا لِلنَّدَامَى نُزْهَةُ المُسْتَمْتِعِ ... تَبْدُو نُجُومُ سُعودِهِمْ فِي مَطْلَعِ

---

(34) 1 ـ 6 في نفح الطيب 490:2.

(35) 1 ـ 5 في أعلام مالقة: 142.

2 ـ مَا فيَّ مَوْضِعُ لَحْظَةٍ إلاَّ احْتَوَى
نَقْلاً فَلِي فِي النَّفْسِ أكْرَمُ مَوْضِعِ

3 ـ أنَا مُسْتَطِيلُ الشَّكْلِ إلاَّ أنّنِي
قُسِّمْتُ بَيْنَ مُسَدَّسٍ وَمُرَبَّعِ

4 ـ فَمَتَى أكُنْ وَالأُقْحُوَانُ بِمَجْلِسٍ
لَمْ يُؤْثِرِ النُّدَمَاءُ إلاَّ مَوْضِعِي

5 ـ الفَضْلُ لِي وَإن اشْتَبَهْنَا مَنْصِباً
وَكَفَى بِأنِّي مِنْ ذَوَاتِ الأَرْبَعِ

ـ 36 ـ

وقال يصف القلم من قصيدة: [من الكامل]

1 ـ قلمٌ به الإقليمُ أصبحَ في حمى
بشباته صرفُ الحوادثِ يُصرف

2 ـ ولئن تقاصَر قَدُّه فلقدِّه
ظَلَّتْ له الأَسَلُ الطوالُ تَقَصَّف

3 ـ هل تغنينّ المرهفاتُ غَنَاءَهُ
وصليلُها لصريره يُسْتَضعَف

4 ـ حكتِ الظُّبا والسمرَ فعلاً منه لو
لاهُ لَعُطِّلَ صارمٌ ومثقف

5 ـ طَعْنٌ كمثل النَّقْطِ منضافٌ إلى
ضَرْبٍ كما شُكِلَتْ بنقطِ أحرف

(36) 1 ـ 7 في الذيل والتكملة 5:610.

6 ـ كـلٌّ يتيـه بـأنْ حـوى شبهـاً لـه
فـانظـرْ إلـى المحكـيِّ فهـو الأشـرف
7 ـ يكفيـه فخـراً أنَّ كـلَّ مقـدَّرٍ
يجـري بمـا قـد خطَّـه ويصـرف

ـ 37 ـ

ومن وصاياه النافعة، وآدابه الجامعة، قوله [من الطويل]

1 ـ عليك بكتمان المصائب واصطبر
عليهـا فمـا أبقـى الـزمـانُ شفيقـا
2 ـ كفاك من الشكوى إلى الناسِ أنه
تسـرُّ عـدوّاً أو تسـوءُ صـديقـا

ـ 38 ـ

ومن شعره: [من الطويل]

1 ـ يَقُـولُـونَ إنَّ العَيْـنَ دَاعَيـةُ الْهَـوَى
وَلَـوْ صَـحَّ ذَا مَـا كَـانَـتِ العَيْـنُ تَعْشَـقُ
2 ـ فُـؤَادُ الفَتَـى لاَ عَيْنُـهُ يُـوجِـبُ الهَـوَى
فَـرُؤْيَتُـهُ مِـنْ رُؤْيَـةِ العَيْـنِ أَصْـدَقُ

---

(37) 1، 2 في الذيل والتكملة 5:612 ـ 613؛ والإحاطة 2:237 وجذوة الاقتباس: 280.
(38) 1 ـ 3 في أعلام مالقة: 145.

3 ـ وَلَيْسَ بُكَاءُ العَيْنِ حُبّاً وَإِنَّمَا
لإِشْفَاقِهَا لِلْقَلْبِ تَبْكِي وتُشْفِقُ

ـ 39 ـ

وقال في تفضيل الشرق: [من الكامل]

1 ـ لا يستوي شرقُ البلاد وغربها
الشرقُ حازَ الفضلَ باستحقاق

2 ـ انظرْ لحالِ الشمسِ عند طلوعها
زهراءَ تصحبُ بهجةَ الإشراق

3 ـ وانظرْ لها عندَ الغروبِ كئيبةً
صفراءَ تُعْقِبُ ظلمةَ الآفاق

4 ـ وكفى بيومِ طلوعها من غربها
أنْ تؤذنَ الدنيا بوشكِ فراق

ـ 40 ـ

ومن شعره: [مخلع البسيط]

1 ـ مَوْلاَيَ إِنِّي بِحَالِ شَوْقٍ
كُلُّ اصْطِبَارٍ بِهِ يَحُولُ

---

(39) 1 ـ 4 في الذيل والتكملة 5:610 ـ 611؛ والإحاطة 2:237.

(40) 1 ـ 3 في أعلام مالقة: 144، وهي في مختارات من الشعر الأندلسي والمغربي: 221.

2 ـ مُــــرْتَقِبــــاً زَوْرَةً عَسَــــاهَــــا
تَشْفِــــي جَــــوىً هَــــاجَــــهُ الغَلِيــــلُ

3 ـ أَرْسَلْــــتُ فِيهَــــا إِلَيْــــكَ قَلْبِــــي
وَمَــــا أَرَى يَــــرْجِــــعُ الــــرَّسُــــولُ

ـ 41 ـ

ومن شعره: [مخلع البسيط]:

1 ـ طهِّــرْ بِمَــاءِ التُّقَــى جَنَــانَــكْ
وَاصْحَــبْ عَلَــى حَــالِــهِ زَمَــانَــكْ

2 ـ وَدَارِ أَبْنَــــاءَهُ عَسَــــى أَنْ
تَنَــالَ مِــنْ بَغْيِهِــمْ أَمَــانَــكْ

3 ـ وَاصْمــتْ إذَا مَــا سَمِعْــتَ لَغْــواً
وَلاَ تُحَــرِّكْ بِــهِ لِسَــانَــكْ

ـ 42 ـ

ومن شعره: [من المتقارب]

1 ـ إذا بلــغ المــرء أرض الحجــاز
فقــد نــال أفضــل مــا أمّلــه

---

(41) 1 ـ 3 في أعلام مالقة: 147.

(42) 1، 2 في الذيل والتكملة 664:5 ونفح الطيب 488:2 والإحاطة 237:2 وجذوة الاقتباس: 280.

2 ـ وإن زار قبـــــر نبـــــي الهــــدى
فقـــــد أكمـــــل الله مـــــا أمّ لـــــه

ـ 43 ـ

ومن شعره في ذم الإخوان: [من المتقارب]

1 ـ أخــلاّء هــذا الــزّمــانِ الخــؤونِ
تَــــوالَـــتْ عليهـــمْ حـــروفُ العِلــــلْ

2 ـ قضيـــتُ التعجّـــبَ مـــن بــابِهـــمْ
فصـــرتُ أُطـــالــــعُ بـــابَ البـــدلْ

ـ 44 ـ

وقال: [من الكامل]

1 ـ لصنـائـع المعـروف فلتـة عـاقـل
إن لـــم تضعهـــا فـــي محـــل عـــاقِـــل

2 ـ كـالنفـس فـي شهـواتهـا إن لـم تكـن
وفقـــاً لهـــا عـــادت بضـــرٍّ عـــاجـــل

(43) 1، 2 في نفح الطيب 384:2.

(44) 1، 2 في جذوة الاقتباس: 280. والذيل والتكملة 609:5ـ610، والإحاطة 237:2، وفي الرواية اختلافات.

— 45 —

وقال: [من المتقارب]

1 ـ تَغَيَّرَ إخوانُ هذا الزمانِ
وكلُّ صديقٍ عَرَاه الخللْ

2 ـ وكانوا قديماً على صحَّةٍ
فقد داخَلَتْهُمْ حروفُ العلل

3 ـ قضيتُ التعجبَ من أمرهم
فَصرتُ أُطالعُ بابَ البدل

— 46 —

ومن شعره في جارية تركها بغَرناطَة: [مخلع البسيط]

1 ـ طولُ اغترابٍ وبَرْحُ شوقٍ
لا صَبْرَ واللَّهِ لي عليهِ

2 ـ إليكَ أشكو الذي أُلاقي
يا خيرَ مَنْ يُشْتَكى إليهِ

---

(45) 1 ـ 3 في النفح 384:2 ويروى:

1 ـ ثكلت أخلاء هذا الزمان
فعندي مما جنوه خلل

وفي رواية:

أخلاء هذا الزمان الخؤو
ن توالت عليهم حروف العلل

وكل هذا من اضطراب الرواية بين بيت وآخر.

(46) 1 ـ 6 في نفح الطيب 386:2 والمغرب 384:2.

3 ـ ولـــي بغـــرنـــاطَـــةٍ حَبيـــبٌ
قـــد غَلِـــقَ الـــرهـــنُ فـــي يـــديـــهِ

4 ـ ودَّعْتُـــــهُ وهـــــو فـــــي دلالٍ
يُظهـــرُ لـــي بعـــضَ مـــا لـــديـــهِ

5 ـ فلَـــوْ تـــرى طَـــلَّ نـــرجسيـــه
ينهـــــلُّ فـــــي وردِ وجنتيـــــهِ

6 ـ أبصـــــرتَ دُرّاً علـــــى عقيـــقٍ
مـــن دمعـــهِ فـــوقَ صفحتيـــهِ

ـ 47 ـ

وقال: [من البسيط]

1 ـ النـاسُ مثـلُ ظـروفٍ حَشْـوُهـا صَبِـرٌ
وفـــوقَ أفـــواههـــا شـــيءٌ مـــن العَسَـــلِ

2 ـ تَغُـــرُّ ذائقَهـــا حتـــى إذا كُشِفَـــتْ
لـــه تبيَّـــنَ مـــا تَحْـــويـــهِ مـــن دَخَـــلِ

(47) 1، 2 في نفح الطيب 2:491.

— 48 —

ونظم معنى قوله: فلتأت الهبات أشبه شيء بفلتات الشهوات: [من الطويل]

1 ـ وكم فَلَتاتٍ للصنائعِ تُتَّقَى
عواقبُها إنْ لم تقعْ في محلِّها

2 ـ كذا شهواتُ المرءِ إن لم تكنْ له
موافقةً عادت عليه بِكَلِّها

— 49 —

وقال: [من مجزوء الخفيف]

1 ـ قل إذا جئتَ مجلساً
وسمعتَ المزاحَ مَهْ

2 ـ واجتنب كل موردٍ
فيه تلقى المزاحمة

(48) 1، 2 في الذيل والتكملة 609:5. وقارن بالقطعة رقم: 44.

(49) 1، 2 في قلائد الجمان 129:6.

ـ 50 ـ

ومن شعره، وقد أزمع على حج بيت الله الحرام وزيارة قَبْر نبيه عليه السلام: [من الوافر]

1 ـ أَقُــولُ وَقَــدْ دَعَــا لِلْخَيْــرِ دَاعٍ
حَنَنْــتُ لَــهُ حَنِيــنَ الْمُسْتَهَــامِ

2 ـ حَــرَامٌ أَنْ يُلِــمَّ بِــيَ اغْتِمَــاضٌ
وَلَــمْ أَرْحَــلْ إِلَــى الْبَيْــتِ الْحَــرَامِ

3 ـ وَلاَ طَــافَــتْ بِــيَ الآمَــالُ إِنْ لَــمْ
أَطُــفْ مَــا بَيْــنَ زَمْــزَم وَالْمَقَــامِ

4 ـ وَلاَ طَــابَــتْ حَيَــاةٌ لِــي إِذَا لَــمْ
أَزُرْ مِــنْ طيبَــةٍ خَيْــرَ الأَنَــامِ

5 ـ فَــأُهْــدِيــهِ السَّــلاَمَ وَأَقْتَضِيــهِ
رِضًــى يُــدْنِــي إِلَــى دَارِ السَّــلاَمِ

ـ 51 ـ

ومن شعره وكتب به إلى بعض إخوانه يصف لعبة كُرّج كانت بمجلسه: [مخلع البسيط]

1 ـ يَــا خَيْــرَ خِــلٍّ فَــدَتْــهُ نَفْسِــي
وَالنَّفْــسُ فِــي حَقِّــهِ تَهُــونُ

(50) 1 ـ 5 في أعلام مالقة: 146، (وزاد المسافر رقم 34) ص: 329.
(51) 1 ـ 8 في أعلام مالقة: 144 ـ 145.

2 ـ حُـــدِّثْـــتُ عَـــنْ مَجْلِـــسٍ أَنِيـــقٍ
فِـــي مِثْلِـــهِ يَحْسُـــنُ المُجُـــونُ
3 ـ جَـــالَ بِـــهِ فَـــارِسٌ ظَـــرِيـــفٌ
تُتْبِعُـــــهُ لَحْظَهَـــــا العُيُـــــونُ
4 ـ فِـــي شِكَّـــةِ الحَـــرْبِ قَـــدْ تَبَـــدَّى
تَـــرْجُمُـــــهُ وَهْمَهَـــا الظُّنُـــونُ
5 ـ ذُو حَـــرَكَـــاتٍ يَخِـــفُّ فِيهَـــا
مَـــنْ لَـــمْ يَـــزَلْ دَأْبُـــهُ السُّكُـــونُ
6 ـ رَقَّـــتْ فَلَـــوْ أَنَّهَـــا نَسِيـــمٌ
مَـــا شَعَـــرَتْ مَسَّـــهُ الغُصُـــونُ
7 ـ لَـــوْ أَنَّـــهُ جَـــالَ فِـــي المَـــآقِـــي
لَمَـــا أَحَسَّـــتْ بِـــهِ الجُفُـــونُ
8 ـ فَهَـــلْ إِلَـــى مِثْلِـــهِ سَبِيـــلٌ
وَمِثْلُـــــهُ قَلَّمَـــــا يَكُـــــونُ

ـ 52 ـ

وقال: [من الوافر]

1 ـ بيـــانُ المـــرء بـــالإكثـــار عِـــيٌّ
وعيـــب الصمـــت أقـــربُ للبيـــانِ
2 ـ ومـــا فـــي الأرض إن فكـــرت شـــيءٌ
أحـــق بطـــولِ سجـــنٍ مـــن لســـان

---

(52) 1، 2 في جذوة الاقتباس: 280.

— 53 —

وله من قصيدة يتشوق بها (إلى) أهله رحمه الله : [من المتقارب]

1 ـ غَـــرِيـــبٌ تَـــذَكَّـــرَ أَوْطَـــانَـــهُ
فَهَيَّـــجَ بِـــالـــذِّكْـــرِ أَشْجَـــانَـــهُ

2 ـ يَحُـــلُّ عُـــرَى صَبْـــرِهِ بِـــالأَسَـــى
ويَعْقِـــدُ بِـــالنَّجْـــمِ أَجْفَـــانَـــهُ

3 ـ ويـــرســـلُ للغـــرب مـــن دمعـــه
غـــروبـــاً لتسقـــيَ سكـــانَـــهُ

— 54 —

قال: ومن أبدع ما أنشده رحمه الله تعالى أول رحلته: [من الخفيف]

1 ـ طـالَ شـوقـي إلـى بِقـاعٍ ثـلاثٍ
لا تُشَـــدُّ الـــرِّحـــالُ إلاّ إليْهَـــا

2 ـ إن للنَّفـسِ فـي سمـاءِ الأمـانـي
طـــائـــراً لا يَحـــومُ إلاّ علَيْهـــا

3 ـ قُـصَّ منـه الجنـاحُ فهـو مَهِيـضٌ
كـلَّ يـومٍ يـرجـو الـوقـوعَ لـديْهـا

(53) 1، 2 في أعلام مالقة: 146 ونفح الطيب 384:2 والمغرب 385:2 (باختلاف في الرواية) وزاد المسافر (رقم: 34) ص: 329 (البيتان الأول والثاني فقط).

(54) 1 ـ 3 في النفح 488:2.

— 55 —

وحكى ابن سعيد وغيره أن غَرناطة تسمى «دمشق الأندلس» لسكنى أهل دمشق الشام بها عند دخولهم الأندلس، وقد شبهوها بها لمّا رأوها كثيرة المياه والأشجار، وقد أطلّ عليها جبلُ الثلج، وفي ذلك يقول ابن جُبير صاحب الرحلة: [مجزوء الرمل]

يـــا دمشـــقَ الغـــربِ هـــاتِيـ
ـــــكَ لقـــــد زدْتِ عليهـــــا

تحتـــــكِ الأنْهـــــارُ تجـــري
وهـــــي تنصـــــبُّ إليهـــــا

قال ابن سعيد: أشار ابن جبير إلى أن غَرْناطة في مكانٍ مشرف.

— 56 —

وكَتَبَ إلَى أبي الحَكَم بنِ هَروْدس: [من المتقارب]

1 ـ أَبَـا حَكَـمٍ أَيْـنَ عَهْـدُ الـوَفَـاءِ
فَقِـدْمـاً عَهِـدْتُـكَ تُعْـزَى إلَيْـهِ

2 ـ وَمَـا العُـذْرُ فِـي أَنْ أَتَـاكَ الـرَّسُـولُ
فَـأَصْـدَرْتَـهُ ضَـارِبـاً صَـدْرَتَيْـهِ

(55) 1، 2 في نفح الطيب 392:2.

(56) 1 ـ 3 في أعلام مالقة: 142.

ـ 57 ـ

وقال، لمّا رأى البيت الحرام زاده الله شرفاً: [من المتقارب]

1 ـ بَـدَتْ لـيَ أعـلامُ بيـتِ الهُـدى
بمكّـــةَ والنـــورُ بـــادٍ عليــــهِ

2 ـ فـأحـرمـتُ شـوقـاً لَـهُ بـالهـوى
وأهـــديـــتُ قلبـــيْ هَـــدِيّـــاً إليـــهِ

ـ 58 ـ

وقال: [من الطويل]

1 ـ تنـزه عـن العـوراء مهمـا سمعتهـا
صيـــانـــةَ نفـــسٍ فهـــو بـــالحـــرِّ أشبـــه

2 ـ إذا أنـت جـاويـت السفيـه مشـاتمـاً
فمـــن يتلقـــى الشتـــمَ بـــالشتـــم أسفـــه

ـ 59 ـ

وقال: [من السريع]

1 ـ إيـــاك والشهـــوة فـــي ملبـــسٍ
والبـــس مـــن الأثـــواب أسمـــالهـــا

---

(57) 1، 2 في نفح الطيب 384:2.

(58) 1، 2 في نفح الطيب 485:2 (مقدمة الرحلة: 17).

(59) 1، 2 في نفح الطيب 485:2 (مقدمة الرحلة: 17).

2 ـ تــواضـــع الإنســـان فـــي نفســه
أشرف للنفـــــس وأسمــــــى لهـــــا

ـ 60 ـ

ومن شعره قوله، وقد دخل بغداد فاقتطع غصناً نضيراً من أحد بساتينها فذَوَى في يده: [مجزوء الرجز]

1 ـ لا تَغْتــــرِبْ عَـــــنْ وَطَـــــنٍ
واذكـــــر تصــــاريــــفَ النّـــوَى

2 ـ أمـــــا تـــــرى الغصـــــنَ إذا
مـــــا فــــارق الأصــــــلَ ذَوَى

(60) 1، 2 في نفح الطيب 382:2.

3 ـ مقطعات في ذم الفلاسفة بعامة
وفي هجاء ابن رشد بخاصة

أ ـ ذم الفلاسفة.

ب ـ هجاء ابن رشد.

أ ـ في ذم الفلاسفة

ـ 61 ـ

وقال في ذم الفلاسفة : [مخلع البسيط]

1 ـ قــد ثَبّــتَ الغــيَّ فــي العبــادِ
طــــائفــــةُ الكــــونِ والفســــادِ

2 ـ يلعنهــا اللّــهُ حيــثُ كــانــتْ
فــــإنهــــا آفــــةُ العبــــادِ

3 ـ دُهْــريَّــةٌ لا يَــروْنَ رُسْــلاً
ولا يقــــرّونَ بــــالمعــــاد

4 ـ يعتقــــدونَ الأُمــــورَ دوراً
والنــاسَ كــالــزرع والحصــاد

ـ 62 ـ

وقال : [من السريع]

1 ـ قــد ظَهَــرَتْ فــي عصــرنــا فــرقــةٌ
ظُهــورهــا شُــؤمٌ علــى العصــرِ

---

(61) 1 ـ 4 في الذيل والتكملة 611:5.

(62) 1، 2 في نفح الطيب 385:2.

2 ـ لا تقتدي في الدين إلا بما
سَنَّ ابن سينا وأبو نَصْرِ

ـ 63 ـ

وقال: [من المنسرح]

1 ـ ضلّت بأفعالها الشنيعةْ
طائفةٌ عن هُدَى الشّريعةْ

2 ـ لَيْسَتُ ترى فاعلاً حكيماً
يفعلُ شيئاً سوى الطبيعةْ

ـ 64 ـ

وقال: [من السريع]

1 ـ يا وحْشةَ الإسلامِ من فرقةٍ
شاغلةٍ أنفُسَها بالسَّفَهْ

2 ـ قد نبذَتْ دينَ الهدى خَلفَها
وادَّعَتِ الحكمةَ والفلسفهْ

---

(63) 1، 2 في نفح الطيب 385:2.

(64) نفح الطيب 385:2.

— 65 —

وله [من الوافر]

1 ـ لأَشيــاعِ الفــلاسفــةِ اعتقــادٌ
يَــرَوْنَ بــه عــن الشــرعِ انحــلالا

2 ـ أبــاحــوا كــلَّ محظــورٍ حــرامٍ
وَرَدُّوه لأنفسهــــــمْ حــــــلالا

3 ـ ومــا ٱنتسبــوا إلــى الإســلام إلاّ
لصــونِ دمــائهــم أَنْ لا تســالا

4 ـ فيــأتــونَ المنــاكــرَ فــي نشــاطٍ
ويــأتــون الصــلاةَ وهــم كســالــى

— 66 —

وله أيضاً: [من المجتث]

1 ـ الــديــنُ يشكــو بليــهْ
مــن فــرقــةٍ منطقيــهْ

2 ـ لا يشهــدون صــلاةً
إلا لمعنــى التقيَّــه

3 ـ ولا تــرى الشــرعَ إلا
سيــاســة مــدنيــهْ

4 ـ ويــؤثــرون عليــه
مــذاهبــاً فلسفيــه

(66) 1 ـ 4 في الذيل والتكملة 5:611 ـ 612.

ب ـ في هجاء ابن رشد

ـ 67 ـ

وله أيضاً في ابن رشد: [من البسيط]

1 ـ خليفـةَ اللَّـه دُمْ للـديـنِ تَحْـرُسُـهُ
مـنَ العـدى وتقيـه شـرَّ [كـل] فئـه

2 ـ فـاللَّـهُ يجعـلُ عـدلاً مـن خـلائفِـهِ
مُطَهّـراً دينُـهُ فـي رأسِ كـل مـائـهْ

ـ 68 ـ

وقال الحاج أبو الحسين بن جبير في ابن رشد: [مخلع البسيط]

1 ـ الآن قـد أيقـن ابـنُ رشـدِ
أَنَّ تـواليفَـهُ تـوالـفْ

2 ـ يـا ظـالمـاً نَفْسَـهُ تـأمَّـلْ
هـل تجـدُ اليـومَ مَـنْ يُـوالـف

---

(67) 1، 2 في الذيل والتكملة 31:6.

(68) 1، 2 في الذيل والتكملة 30:6.

ـ 69 ـ

وله فيه أيضاً: [من الكامل]

1 ـ نفذ القضاءُ بأخذِ كل مرمّةٍ[1]
متفلسفٍ في دينه متزندقِ

2 ـ بالمنطق اشتغلوا فقيل حقيقةٌ
إنَّ البلاءَ مُوكَّلٌ بالمنطق

ـ 70 ـ

وله فيه أيضاً: [من السريع]

1 ـ الحمدُ للَّه على نصرِهِ
لفرقة الحق وأشياعِهِ

2 ـ كان ابنُ رشدٍ في مدى غيه
قد وَضَعَ الدينَ بأوضاعه

3 ـ حتى إذا أوضع في طُرْقِهِ
توى لفيه عند إيضاعه

4 ـ فالحمد للَّه على أخذه
وأَخْذِ مَنْ كان مِنَ اتباعه

(69) 1، 2 في الذيل والتكملة 30:6.

(1) في حاشية النسخة: لعله: كل مموه.

(70) 1 ـ 4 في الذيل والتكملة 30:6.

ـ 71 ـ

وله فيه: [مخلع البسيط]

1 ـ خليفةُ اللَّهِ أنت حقاً
فارْقَ من السَّعْدِ خيرَ مَرْقى

2 ـ حميتُم الدينَ من عِداهُ
وكل مَنْ رامَ فيه فَتْقا

3 ـ أطلعك اللَّهُ سِر قومٍ
شَقُّوا العصا بالنفاقِ شَقَّا

4 ـ تفلسفوا وادَّعَوْا علوماً
صاحبُها في المعادِ يَشْقَى

5 ـ واحتقروا الشرعَ وازدرَوْهُ
سفاهةً منهم وحمقا

6 ـ أوسعتهم لعنةً وخزياً
وقلتَ بُعداً لهم وَسُحقا

7 ـ فابقَ لدينِ الإلهِ كهفاً
فإنه ما بقيتَ يبقى

(71) 1 ـ 7 في الذيل والتكملة 31:6.

ـ 72 ـ

وله أيضاً في ابن رشد: [من الطويل]

1 ـ بلغتَ أميرَ المؤمنينَ مدى المنى
لأنَّكَ قد بلَّغتنا ما نُؤَمِّلُ

2 ـ قصدتَ إلى الإسلام تُعلي منارَهُ
ومقصدُكَ الأسنى لدى الله يُقْبَلُ

3 ـ تداركتَ دينَ الله في أخذِ فرقةٍ
بمنطقهمْ كان البلاءُ الموكَّل

4 ـ أثاروا على الدينِ الحنيفي فتنةً
لها نارُ غيٍّ في العقائدِ تشعل

5 ـ أقمتهمُ للناس يبرأ منهمُ
وَوَجْهُ الهدى من خزيهم يتهلَّل

6 ـ وأوعزتَ في الأقطار بالبحث عنهمُ
وعن كتبهمْ، والسعيُ في ذاك أجمل

7 ـ وقد كان للسيفِ اشتياقٌ إليهمُ
ولكنْ مقامُ الخزي للنفسِ أقتل

8 ـ وآثرتَ دَرْءَ الحد عنهم بِشُبْهَةٍ
لظاهرِ إسلام، وحكمُكَ أَعدل

وله فيه غير ذلك مما يطول إيراده[1].

---

(72) 1 ـ 8 في الذيل والتكملة 31:6.

(1) من أمر ابن رشد أنه نال عفو الخليفة الموحدي واستدعي إلى مراكش :=

— 73 —

وله في ابن رشد أيضاً: [مخلع البسيط]

1 ـ لـم تلـزمِ الـرشـدَ يـابـنَ رُشْـدِ
لمَّـا عـلا فـي الـزمـان جَـدُّكْ

2 ـ وكنـتَ فـي الـديـنِ ذا ريـاءٍ
مـا هكـذا كـانَ فيـه جَـدُّك

— 74 —

وفيه أيضاً: [مخلع البسيط]

1 ـ قـلْ للـزنـاديـق عنـي
قـولاً هـو السيـفُ أُمضيـهْ

2 ـ أرسلـتُ شعـريَ فيكـم
يغـزوكـمُ بقـوافيـه

3 ـ صـدعـتُ للّـه فيـه
بـالحـقِّ والحـقُّ يـرضيـهْ

4 ـ كـم ظـامـئٍ لكـلامـي
يَـرويـه عجبـاً فَيُـزْوِيـهْ

= وتوفي بها 9 صفر 595/1198 شهر دجنبر (كانون الأول: ديسمبر).

(73) 1، 2 في الذيل والتكملة 6:30.

(74) 1 ـ 10 في الذيل والتكملة 5:612.

5 ـ وكم غليلِ فؤادٍ
بصحة القول يشفيهْ
6 ـ وراكبٍ لهواهُ
عساهُ يوماً سيثنيه
7 ـ لعلكم أن تقولوا
فإنكم أهلُ تمويه
8 ـ مَنْ كان جاهلَ شيء
فلا يزالُ يعاديه
9 ـ هيهات بغضيَ فيكم
في اللَّهِ واللَّهُ يدريه
10 ـ وذلك العلمُ عندي
لا خيرَ فيكم ولا فيه

2 ـ نماذج من نثر ابن جبير

1 ـ نموذج من ترسله:

. ومن كتبه إلى بعض إخوانه[1]: آنَ لِعَصَا النَّوَى أنْ تَنْصَدِع، ولضَوائِقِ هَذِهِ النَّوَائِبِ أَنْ تَرْتَدِعَ، وَلِلأَيَامِ أَنْ تُنشىء غَيْرَ هَذِهِ المَنَازِع وتَبْتَدِع، لِشِدَّةِ مَا لَعِبَتْ بِنَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَال، وَأَرَتْنَا الحَقِيقَةَ فِي مَلاَمِحِ المُحَال. وكانَ يَكْفِيهَا أنْ نَثَرَتْ نَظْمَ ذَلِكَ الشَّمْلِ الذِي كُنْتَ وَاسِطَةَ عقْدِهِ، وَالوشي الرَّائِقِ في بُرْدِهِ، حَتَّى فَجَعَتْنَا بِفَقْدِ مَنْ بَكَتِ الدُّنْيَا وبَنُوهَا عَلَى فَقْدِه. إِلَى اللهِ المُشْتَكى مِنْ صُرُوفِهَا، وَهُوَ المَسْؤُولُ (عَنْ) إِزَاحَةِ مُنْكَرِهَا وَمَعْرُوفِهَا. وَلِحِين مَا أُشْعِرْتُ بِكَوْنِكَ عَلَى كَثَبٍ مِنْ هَذِهِ الجِهَة، اختَلَسْتُ هَذِهِ الأَحْرُفَ إِلَيْكَ (مُوجَّهَة)، مِنْ يَدِ خَاطِرٍ لاَ يُعَرِّجُ عَلَى دَاعِيهِ، وَلاَ يَكَادِ يَسْمَعُ سِرّاً وَلاَ يَعِيهِ. قَدْ وَله فَلاَ يَعْرفُ دبيراً مِنْ قَبِيل، ولا يَجِدُ إِلَى العبارة عَمَّا يَتَلَجْلَجُ فِي الصَّدْرِ مِنْ سَبِيل. لكِنْ بِحُكْمِ الشَّوْقِ إِلَى مُحَاوَرَتِكَ بِلِسَان القَلَم، رَشَحَتْ لِي صَفَاتُهُ بِنُبْذَةٍ مِنَ الكلم، فَأَرْسَلْتُ عِنَانَهُ في مَيْدانِ الاِخْتِصَار، وسَلَكْتُ بِهِ في شِعَابِ القَوْلِ عَلَى غَيْرِ اسْتِبْصَار. وَأَمَّا شَوْقِي إِلَى لقَائِكَ فَلاَ أَصِفُه، وَلَوْ خِلْتُ مَا عَسَى (أَنْ أَقُول) لا أُنْصِفُه. وَحَسْبِي مِمَّا يَتَحَقَّقُ مِنْ ذَلِكَ (.....)، مُعِيناً عَلَى تَقْدِيرِ أَوْكَدِه، فَيَدْخُل مَدْخَلَ الحَدِيثِ

(1) أعلام مالقة: 138 ـ 139.

المُعَاد، وَأَنْتَ الأَعْلَمُ بِهِ عَلَى القُرْبِ والبِعَاد. ولَعَلَّ الزَّمَانَ يَنْبَسِطُ وَجْهُ إِسْعَافِهِ بِلُقْية نَغْفِرُ بِهَا بَعْضَ مَا جَنَاه، ونَقْتَطِفُ الأُنْسَ عَلَى يَدَيْكَ حُلْواً جَنَاه، إنْ شَاءَ اللهُ تعالى.

ولِسيِّدِي الْفَضْلُ فِي مُرَاجَعَةٍ تشْفِي عَنْ مجتلى أحْوَالِهِ، لاَ بَرِحَتْ تَتَقَلَّبُ فِي قَبْضَةِ آمَالِهِ، بِمَنِّ اللهِ عزَّ وَجَلَّ والسلام.

2 ـ نموذج ثانٍ من ترسله:

كتب إلى الشام متشوقاً شيخ الشيوخ ابن حمويه، جواب كتاب صدر منها له: صدرت المخاطبة العزيزة الفلانية ـ حرس الله سناءه وسناه، ويسّر له كل أملٍ وسنَّاه، وعرّفه بعد طول العمر حُسْنَ خاتم مساه، بما يصدر عن مثله، ويضيق بفضله، والفضلُ لا يُنكَرُ على أهله، وعلم الله أني إليه بالأشواق، وكيف لا؟ ومن ذاق طيب شيمِهِ الكريمة لم يشبع من ذواق؛ وصل من محبته ويبقيه، ومن كل مكروه يقيه، وإلى كلّ مَعْلُوَةٍ يرقّيه.

3 ـ وكتب إليه أيضاً شافعاً في رجل من فقراء أهل بلده أن ينزل في موضعٍ يرتزقُ منه، وقد كان يكرر القولَ فيه[1]:

كان قد تقدم وعد الكريم للشيخ الصالح فلان أن ينزل مع الصوفية ـ نفع الله ببركتهم ـ أو يرتب له إمامة مسجد في هذا الشهر الشريف. فإن كان قد تيسر ذلك فهو يسأل إنجازه، وإن تعسّر ذلك لسوء حظه، فليس له سوى بابه المقصود، ولا يرد عند

(1) الرسالتان 2، 3 في قلائد الجمان 130:6 ـ 132.

ظمائه سوى بحر كرمه المورود، فقد أسمع لسانُ الحال عنده أدام الله سؤدده:

إلينــا اقصــدوا يــا معشــرَ الــركــب إننــا
نــــرى العـــار أن نمســـي بغيـــر وفـــود

فإن كان قد تيسر ذلك فهو يسأل إنجازه. وهذه ليالٍ عظَّم الله بركاتها عليه، وساق أجر الداعين فيها إليه. لا يحتمل الصبر على إفراط الضرورة البشرية، واللوازم الجثمانية، سيما مع العيال، وفرط الإقلال.

وما كتبتها إلا وقد تحققت أنه انتهى إلى حالة لا يستطيع معها صبراً. وتمسَّكَ بذيل المراحم الشيخية، وقد طفق لسانه يقرأ: (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغتَ من لدني عذراً).

4 ـ وكتب إليه أيضاً من الإسكندرية متشوقاً وشافعاً: ومقصودي ذكر فضله، ونشر ذكره، لا وصف ما وصفني ثناءً على حسن ظنه، لا على حقيقة حال، صدَّرها بهذه الأبيات[1]:

ســـلام كـــأزهـــار الـــربيـــع نضـــارةً
وحسناً على شيخ الشيوخ الذي صفا

ولو لم يعقني العذر عن قصد ربعه
سعيتُ كما يسعى الملبي إلى الصفا

(1) الرسالة 4 ـ في قلائد الجمان 6:132 ـ 139.

ولكــن عــدانــي عنــه دهــر مكــدِّرٌ
ومــن ذا الــذي واتــاه فــي دهــر الصفــا

أصــدرت هــذه اللمعــة والشــوق إلــى خــدمتــه مستعــر اللهب، وأورد أدعيتي في ضمن ذلك متابعة الأوراد والنوب، ولسـت أرى الإغـراق، فـي إيضـاح ولائـي الـذي راق، لتحققـي إحاطـة المعرفة الكريمة بعقائد أولي الوفاق، والله سبحانه يوفقني لشكر ما منحته من جميل ولائه ووداده اللذين خلصا لي بغير استحقاق.

وهذه التحية تصلُ على يد فلان، وهو غرة أهلي وأخلائي، وولاؤه للشيخ السيد فلان كولائي. وما فتىء منذ حظيَ باجتلاء محاسنه الباهرة، واختبار أخلاقه الطاهرة، من تلاوة صحف الثناء المحبّر والاطناب فيما برّز فيه على مادح كتب وعبّر. وقد قصد الخدمة، ويا ليتني كنت معه، وأحظتني الأيام بما أحظت مرآه ومسمعـه. على أني وإن كنت هابطاً، فلست من درك الأمل قانطاً.

فقـد يجمـع اللّـه الشتيتيـن بعـدمـا
يظنــان كــلَّ الظــنّ ألا تــلاقيــا

وقد قصد ذلك الربع المعمور، والرباط الذي هو قبلة المجد المشهور، وكفلت له عن السيادة بأن يُتَلَقّى بالرحب والتأهيل، ويمدَّ بالمساعدة المفضية به إلى ذلك التأميل.

3 ـ نماذج من رحلته:

أ ـ بعض ما قاله في الإسكندرية (40 ـ 42).

فأوّل ذلك حسنُ وضع البلد واتّساع مبانيه حتى إنّا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه، وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضاً، ومن العجب في وضعه أن بناءَه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقّتها تحت الأرض فتتّصل الآبار بعضها ببعض ويَمُدُّ بعضها بعضاً وعاينّا فيها أيضاً من سواري الرخام وألْواحه كثرةً وعُلوّاً واتّساعاً وحسناً ما لا يتخيَّل بالوهم حتى إنك تلقى في بعض الممرّات بها سواري يغصّ الجوُّ بها صعوداً لا يُدْرَى ما معناها ولا لما كان أصلُ وضعها، وذُكر لنا أنه كان عليها في القديم مبانٍ للفلاسفة خاصّةً ولأهل الرئاسة في ذلك الزمان والله أعلم ويشبه أن يكون ذلك للرصد. ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي قد وضعه الله عز وجل على يدي مَنْ سخّره لذلك آيةً للمتوسّمين، وهدايةً للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى برّ الإسكندريّة، يظهر على أزيد من سبعين ميلاً ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولاً وعرضاً، يزاحم الجوَّ سُمّواً وارتفاعاً يقصر عنه الوصف، وينحسر دونه الطرف، الخبر عنه يضيق والمشاهدة له تتّسع. ذرعنا أحدَ جوانبه الأربعة فألفينا فيه نيّفاً وخمسين باعاً ويُذْكَر أن في طوله أزيد من مائة وخمسين قامة. وأما داخله فمرأىً هائل اتّساعَ معارج ومداخل وكثرة مساكن حتى إن المتصرّف فيها والوالج في مسالكها ربَّما ضلّ وبالجملة لا

يحصّلها القول، والله لا يخليه من دعوة الإسلام ويبقيه. وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة يتبرَّك الناس بالصلاة فيه طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذي الحجّة المؤرَّخ وصلّينا في المسجد المبارك المذكور وشاهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف. ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه المدارسُ والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبُّد يَفِدون من الأقطار النائية فيلقى كلُّ واحد منهم مسكناً يأوي إليه ومدرّساً يعلِّمه الفنَّ الذي يريد تعليمه وإجْراءٍ يقوم به في جميع أحواله. واتسع اعتناءُ السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمّامات يستحمُّون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ونصب لهم مارستاناً لعلاج مَنْ مرض منهم ووكّل بهم أطبّاء يتفقَّدون أحوالهم، وتحت أيديهم خُدّام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء. وقد رُتّب أيضاً فيه أقوام برسم الزيارة للمَرْضى الذين يتنزَّهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصّةً ويُنْهُون إلى الأطبّاء أحوالهم، ليتكفَّلوا بمعالجتهم. ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عيَّن لأبناء السبيل من المغاربة خبزتَيْن لكلّ إنسان في كلّ يوم بالغاً ما بلغوا ونصب لتفريق ذلك كلَّ يوم إنساناً أميناً من قِبَله فقد ينتهي في اليوم إلى ألفي خبزة أو أزيد بحسب القلّة والكثرة هكذا دائماً ولهذا كلّه أوقاف من قِبَله حاشى ما عيَّنه من زكاة العين لذلك وأكّد على المتولّين لذلك متى نقصهم من الوظائف المرسومة شيء أن يرجعوا إلى صُلْب ماله، وأما أهلُ بلده ففي نهاية من الترفيه واتّساع الأحوال لا يلزمهم وظيف البتّةَ. لا فائدة للسلطان بهذا

البلد سوى الأوقاف المُحْبَسة المعيَّنة من قِبَله لهذه الوجوه وجزية اليهود والنصارى وما يطرأ من زكاة العين خاصّةً ليس له منها سوى ثلاثة أثمانها والخمسة الأثمان مضافة للوجوه المذكورة. وهذا السلطان الذي سنّ هذه السُنَن المحمودة ورسم هذه الرسوم الكريمة على عدمها في المدّة البعيدة هو. . . . . . .

ب ـ ذكر مدينة الحلَّة (213 ـ 214).

هي مدينة كبيرة عتيقة الوضع مستطيلة لم يبق من سورها إلاّ حلقٌ من جدار تُرابيّ مستدير بها وهي على شطّ الفرات يتّصل بها من جانبها الشرقيّ ويمتدّ بطولها (و) لهذه المدينة أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنيّة والصناعات الضرورية وهي قويّة العمارة كثيرة الخلق متّصلة حدائق النخيل داخلاً وخارجاً فديارها بين حدائق النخيل. وألفينا بها جسراً عظيماً معقوداً على مراكب كبار متّصلة من الشطّ إلى الشطّ تحفّ بها من جانبها سلاسل من حديد كالأذرع المفتولة عظماً وضخامة ترتبط إلى خشب مُثْبَتة في كلا الشطّين تدلّ على عظم الاستطاعة والقدرة أَمَرَ الخليفة بعقده على الفرات اهتماماً بالحاجّ واعتناء بسبيله وكانوا قبل ذلك يعبرون في المراكب فوجدوا هذا الجسر قد عقده الخليفة في مغيبهم ولم يكن عند شخوصهم إلى مكّة شرّفها الله، وعبرنا الجسر ظهر يوم الأحد المذكور ونزلنا بشطّ الفرات على مقدار فرسخ من البلد، وهذا النهر كاسمه فُرات هو من أعذب المياه وأخفّها وهو نهر كبير زخّار تصعد فيه السُفُن وتنحدر الطريق من الحلّة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها في بسائط من الأرض وعمائر تتّصل بها القرى يميناً

وشمالاً. ويشقّ هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرّب بها وتسقيها فمَحْرَثُها لا حدَّ لاتّساعه وانفساحه، فللعين في هذه الطريق مسرح انشراح، وللنفس مزاد انبساط وانفساح والأمن فيها متّصل بحمد الله سبحانه.

ومن مدينة الحلّة يتسلسل الحاجّ أَرْسالاً وأفواجاً أفواجاً فمنهم المتقدّم والمتوسّط والمتأخّر، لا يعرّج المستعجل على المتعذّر، ولا المتقدّم على المتأخّر، فحيث ما شاءوا من طريقهم نزلوا وأراحوا واستراحوا وسكنت نفوسهم من روعة نقر الكُوس الذي كانت الأفئدة ترجف له بداراً للرحيل واستعجالاً للقيام، فربّما كان النائم منهم يهذي بنقر الكوس فيقوم عجلاً وجلاً ثم يتحقّق انه من أَضْغاث أَحْلامه، فيعود إلى منامه. ومن جملة الدواعي لافتراقهم كثرة القناطير المعترضة في طريقهم إلى بغداد فلا تكاد تمشي ميلاً إلاّ وتجد قنطرة على نهر متفرّع من الفرات فتلك الطريق أكثر الطُرُق سواقي وقناطير وعلى أكثرها خِيام فيها رجال محترسون للطريق اعتناءً من الخليفة بسبيل الحاجّ دون اعتراض منهم لاستنفاع بكدية أو سواها.

صلاح الدين أبو المظفَّر يوسف بن أيُّوب وصل الله صلاحه وتوفيقه، ومن أعجب ما اتّفق للغرباء أن بعض من يريد التقرُّب بالنصائح إلى السلطان ذكر أن أكثر هؤلاء يأخذون جراية الخبز ولا حاجة لهم بها رغبةً في المعيشة لأنّهم لا يصلون إلاّ بزادٍ يُقلّهم فكاد يؤثّر سَعْيُ هذا المتنصّح فلمّا كان في أحد الأيّام خرج السلطان المذكور على سبيل التطلّع خارج بلده فتلقّى منهم جماعةً

قد لفظتْهم الصحراءُ المتّصلة بطَرَابُلُس وهم قد ذهبت رسومهم عطشاً وجوعاً، فسألهم عن وِجْهتهم واستطلع ما لديهم فأعلموه أنهم قاصدون بيتَ الله الحرام وأنهم ركبوا البرَّ وكابدوا مشقّة صحرائه فقال لو وصل هؤلاء وهم قد اعتسفوا هذه المجاهل التي اعتسفوها وكابدوا من الشقاء ما كابدوه وبيد كلّ واحد منهم زِنَتُه ذهباً وفضّة لوجب أن يشاركوا ولا يُقْطَعوا عن العادة التي أجريناها لهم. فالعجب ممن يسعى على مثل هؤلاء ويروم التقرُّب إلينا بالسعي في قطع ما أوجبناه لله عز وجل خالصاً لوجهه. ومآثر هذا السلطان ومقاصده في العدل ومقاماته في الذَبّ عن حوزة الدين لا تُحْصَى كثرةً. ومن الغريب أيضاً في أحوال هذا البلد. تصرُّف الناس فيه بالليل كتصرُّفهم بالنهار في جميع أحوالهم، وهو أكثر بلاد الله مساجد حتى إن تقدير الناس لها يطفّف فمنهم المكثّر والمقلّل فالمكثّر ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد والمقلّل ما دون ذلك لا ينضبط فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك وبالجملة فهي كثيرة جدّاً تكون منها الأربعة والخمسة في موضع وربّما كانت مركّبة وكلُّها بأيمّة مرتّبين من قِبَل السلطان فمنهم من له الخمسة دنانير مصريّة في الشهر وهي عشرة مؤمنيّة، ومنهم من له فوق ذلك ومنهم من له دونه وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان، إلى غير ذلك مما يطول ذكره من المآثر التي يضيق عنها الحصر.

ج ـ ذكر مدينة السلام بغداد (217 ـ 218).

هذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسيّة،

ومثابة الدعوة الإماميّة القرشيّة الهاشميّة، قد ذهب أكثر رسمها، ولم يبقَ منها إلاّ شهير اسمها، هي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنْحاء الحوادث عليها، والتفات أعين النوائب إليها، كالطَلَل الدارس، والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حسن فيها يستوقف البصر، ويستدعي من المستوفز الغفلةَ والنظر، إلاّ دجلتها التي هي بين شرقيّها وغربيّها منها كالمِرْآة المجلوّة بين صفحتيْن، أو العقْد المنتظم بين لبّتيْن، فهي تَرِدها ولا تظمأ، وتتطلّع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ، والحسن التحريميُّ بين هوائها ومائها ينشأ، هي من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة، ففِتَن الهوى إلاّ أن يعصم الله منها مخوفه. وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلاّ من يتصنّع بالتواضُع رياء، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء، يزدرون الغرباء، ويظهرون لمَنْ دونهم الأنفة والإباء، ويستصغرون عمّن سواهم الأحاديثَ والأنباء، قد تصوّر كلّ منهم في معتقَده وخَلَده، أن الوجود كلّه يصغر بالإضافة لبلده، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم، كأنّهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم، يسحبون أذيالهم أَشَراً وبَطَراً، ولا يغيّرون في ذات الله مُنْكَراً، يظنّون أن أَسْنَى الفخار، في سَحْب الإزار، ولا يعلمون أن فضله بمقتضَى الحديث المأثور في النار، يتبايعون بينهم بالذهب قرضاً، وما منهم من يحسن لله قَرْضاً، فلا نفقة فيها إلاّ من دينار تَقرضه، وعلى يدي مُخْسِر الميزان تعرضه، لا تكاد تظفر من خواصّ أهلها بالوَرَع العفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلاّ على من ثبت له الوَيْلُ في سرة التطفيف، ولا يُبالون في ذلك بعيب، كأنّهم من

بقايا مَدْيَنَ قوم النبيّ شُعَيب، فالغريب فيهم معدوم الإرْفاق، متضاعف الإنْفاق، لا يَجِد من أهلها إلاّ من يعامله بنفاق، أو يهشّ إليه هشاشَة انتفاع واسترفاق، كأنّهم من التزام هذه الخلّة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتّفاق، فسوءُ معاشرة أبنائها، يغلب على طبع هوائها ومائها، ويعلّل حسن المسموع من أحاديثها وأنبائها، أَستغفر الله إلاّ فقهاءهم المحدّثين، ووُعّاظهم المذكّرين، لا جَرَم أن لهم في طريقة الوعظ والتذكير، ومداومة التنبيه والتبصير، والمثابرة على الإنْذار المخوّف والتحذير، مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحطّ كثيراً من أوزارهم، ويسحب ذيَل العفو على سوء آثارهم، ويمنع القارعة الصمّاء أن تحلّ بديارهم، لكنّهم معهم يضربون في حديد بارد، ويرومون تفجير الجلامد، فلا يكاد يخلو يوم من أيّام جمعاتهم من واعظ يتكلّم فيه فالموفّق منهم لا يزال في مجلس ذكرٍ أيّامَه كلّها، لهم في ذلك طريقة مباركة ملتزمة، فأوّل من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضيّ الدين القزوينيّ رئيس الشافعيّة، وفقيه المدرسة النظاميّة، والمشار إليه بالتقديم في العلوم الأصوليّة، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة أثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر المذكور فصعد المنبر وأخذ القُرّاء أمامه في القراءة على كراسيّ موضوعة فتوّقوا الشيخ وشوّقوا وأتوا بتلاحين معجبة، ونغمات محرجة مطربة، ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور فخطب خطبةَ سكون ووقار وتصرّف في أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل وإيراد حديث رسوله ﷺ والتكلُّم على معانيه ثم رشقتْه شآبيب المسائل من كلّ جانب فأجاب وما قصر، وتقدّم وما

تأخّر، ودفعت إليه عدّةُ رقاع فيها فجمعها جملةً في يده وجعل يجاوب على كلًّ واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها. وحان المساء فنزل وافترق الجمع فكان مجلسه مجلس علم ووعظ ووقوراً هيّناً ليّناً ظهرت فيه البركة والسكينة، ولم تقصر عن إرسال عبرتها فيه النفسُ المستكينة، ولا سيَّما آخر مجلسه فإنّه سَرَتْ حُمَيّاً وعظه.

د ـ بعض عادات أهل الشام (296 ـ 299):

ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير بجميع هذه الجهات كلّها أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العُنَاة مهانةً واستكانةً كأنهم قد سيموا تعنيفاً، وأوثقوا تكتيفاً، وهم يعتقدون تلك الهيئة تمييزاً لهم في ذوي الخصوصيّة وتشريفاً. ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطاً في الأعضاء؛ وراحة من الإعْياء، والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبراً، أو يضع خلفه اليدَ الواحدة على الأخرى، قد اتخذوا هذه المِشْية بينهم سَنَنا، وكلّ منهم قد زُيّن له سوءُ عمله فرآه حسناً، أستغفر الله منهم فإنّ لهم من آداب المصافحة عوائد تجدّد لهم الإيمان، وتستوهب لهم من الله الغفران، لما بشّر به الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ في المصافحة فهم يستعملونها إثر الصلوات ولا سيّما إثر صلاة الصبح وصلاة العصر. وإذا سلّم الإمام وفرغ من الدعاء أقبلوا عليه بالمصافحة وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره فيتفرّقون عن مجلس مغفرة بفضل الله عز وجل وقد تقدَّم

الذكر فيما سلف من هذا التقييد أنهم يستعملونها عند رؤية الأهلّة ويدعو بعضهم لبعض بتعرُّف بركة ذلك الشهر ويُمنه واستصحاب السعادة. والخير فيه وفيما يعود عليه من أمثاله وتلك أيضاً طريقة حسنة ينفعهم الله بها لما فيها من تعاطِي الدعوات وتجديد المودّات ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضاً رحمة من الله تعالى ونعمة.

وقد تقدَّم الذكر أيضاً في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات صلاح الدين أبي المظفَّر يوسف بن أيُّوب وما له من المآثر المأثورة في الدنيا والدين ومثابرته على جهاد أعداء الله لأنه ليس إمام هذه البلدة بلدة للإسلام، والشام أكثره بيد الإفرنج، فسبّب الله هذا السلطان رحمةً للمسلمين بهذه الجهات فهو لا يأوي لراحة ولا يخلد إلى دَعَة ولا يزال سرجُه مجلسَه. إنّا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين وحللناها وقد خرج لمنازلة حصن الكَرَك وقد تقدَّم الذكر أيضاً له وهو عليه محاصر له حتى الآن والله تعالى يعينه على فتحه، وسمعنا أحدَ فقهاء هذه البلدة وزعمائها المسلّمين بسُدّة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه في حضرة محفل علماء البلد وفقهائها ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاها عنه رأينا إثْباتها هنا إحداها أن الحلم من سجاياه فقال وقد صفح عن جريرة أحد الجُناة عليه أمّا أنا فلأَنْ أخطىء في العفو أحبُّ إليَّ من أن أصيب في العقوبة وهذا في الحلم منزع أَحْنَفيّ. وقال أيضاً وقد تُنُوشِدت بحضرته الأشعار وجرى ذكر مَنْ سلف من أكارم الملوك وأجوادهم: واللهِ لو وهبتُ الدنيا للقاصد الآمل لما كنتُ استكثرها

له ولو استفرغتُ له جميع ما في خزانتي لما كانت عوضاً مما أراقه من حرّ ماء وجهه في استمناحه إيّاي وهذا في الكرم مذهب رَشِيديّ أو جَعْفَريّ. وحضره أحد مماليكه المتميّزين لديه بالحظوة والأثرة مستعدياً على جمّال ذكر انه باعه جملاً معيباً أو صرف عليه جملاً بعيب لم يكن فيه فقال السلطان له: ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاضٍ يحكم بينهم والحقّ الشرعيّ مبسوط للخاصّة والعامّة، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنّما أنا عبد الشرع وشِحْنته والشحنة عندهم صاحب الشُرْطة فالحقّ يقضي لك أو عليك، وهذا في العقد مقصد عُمَريّ. وهذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخراً والله يمتع ببقائه الإسلام والمسلمين بمنّه.

هـ ـ [بعض أحوال الشام تحت سيطرة الفرنج] (299 ـ 301):

من أعجب ما يُحدَّث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج، وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين، شاهدنا من ذلك عند خروجنا [من دمشق] أمراً عجباً. وذلك أن صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك ـ المتقدم الذكر ـ قصد إليه الفرنج في جميعهم، وقد تألبوا من كل العرب، وراموا أن يسبقوه إلى موضع الماء ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين فصمد إليهم وأقلع عن الحصن بجملته وسبقهم إلى موضع الماء فحادوا عن طريقه وسلكوا طريقاً وَعْراً ذهب فيه أكثر دوابّهم وتوجّهوا إلى حصن الكرك المذكور وقد سدَّ عليهم بُنيّات الطُرُق القاصدة إلى بلادهم ولم يبقَ لهم إلاّ طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء ويبعُد مَدَاه عليهم بتحليق يعترض فيه، فاهتبل صلاح الدين في بلادهم الغِرَّة

وانتهز الفرصة وقصد قصدها عن الطريق القاصدة فدَهَمَ مدينةَ نابُلوس وهجمها بعسكره فاستولى عليها وسبى كلَّ من فيها وأخذ إليها حصوناً وضياعاً، وامتلأت أيدي المسلمين سبياً لا يحصى عدده من الإفرنج ومن فرقة من اليهود تعرف بالسَّمَرَة منسوبة إلى السامريّ، وانبسط فيهم القتل الذريع وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها إلى ما اكتُفتَ من الأَمْتعة والذخائر والأسباب والأثاث إلى النَعَم والكراع إلى غير ذلك. وكان من فعل هذا السلطان الموفَّق أن أطلق أيدي المسلمين على جميع ما احتازتْه وسلّم لهم ذلك فاحتازت كلُّ يد [ما] حَوَتْ وامتلأت غِنًى ويساراً وعفَّى الجيش على رسوم تلك الجهات التي مرّ عليها من بلاد الفرنج وآبوا غانمين فائزين بالسلامة والغنيمة والإياب وتخلّصوا من أسرى المسلمين عدداً كثيراً، وكانت غزوة لم يُسْمَع بمثلها في البلاد. وخرجنا نحن من دمشق وأوائل المسلمين قد طرقوا بالغنائم كلٌّ بما احتواه وحصلت يدُه عليه وكان مبلغ السبى آلافاً لم نتحقَّق إحصاءها ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا الأقرب ليوم انفصالنا وأُعْلمنا أنه يُجِمُّ عسكره قليلاً ويعود إلى الحصن المذكور فالله يعينه ويفتح عليه بعزّته وقدرته. وخرجنا نحن إلى بلاد الفرنج وسَبْيُهم يدخل بلاد المسلمين وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة، فكان مبيتنا ليلة الجمعة بداريّة ـ وهي قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف ـ ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة بعده إلى قرية تعرف ببيت جَنّ هي بين جبال ثم رحلنا منها صبيحةَ يوم السبت إلى مدينة بانِيَاس واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلّوط عظيمة الجرم متّسعة التدويح أُعْلمنا أنها تعرف بشجرة

الميزان فسألنا عن ذلك فقيل لنا هي حدٌّ بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحَرَاميّة الإفرنج وهم الحوّاسة والقُطّاع مَنْ أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أُسِر ومَنْ أُخذ دونها إلى جهة بلاد الإفرنج بقدر ذلك أطلق سبيله، لهم في ذلك عهد يوفون به، وهو من أظرف الارتباطات الإفرنجيّة وأغربها.

ذكر مدينة بانياس: هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين وهي صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ويفضي إلى أحد أبواب المدينة وله مَصَبّ تحت أرحاء وكانت بيد الإفرنج فاسترجعها نور الدين رحمه الله ولها محرث واسع في بطحاء متّصلة يُشْرِف عليها حصن للإفرنج يسمّى هُونِين بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ، وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج وبين المسلمين، لهم في ذلك حدٌّ يعرف بحدّ المقاسَمة فهم يتشاطرون الغلّة على استواء ومواشيهم مختلطة ولا حَيْف يجري بينهم فيها، فرحلنا عنها عشيّ يوم السبت المذكور إلى قرية تعرف بالمسية بمقربة من حصن الإفرنج المذكور، فكان مبيتنا بها ثم رحلنا منها يوم الأحد سحراً واجتزنا في طريقنا بين هونين وتِبْنِين بوادٍ ملتفّ الشجر وأكثر شجره الرَنْد بعيد العمق كأنّه الخندق السحيق المَهْوَى تلتقي حافتاه، ويتعلّق بالسماء أعلاه، يعرف بالأسطبل لو ولجتْه العساكر لغابت فيه، لا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه، المهبط والمطلع عنه عقبتان كؤودان، فعجبنا من أمر ذلك المكان فأجزناه ومشينا عنه يسيراً وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف بتِبْنِين وهو موضع تمكيس القوافل، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة هي أمّ الملك الخنزير صاحب عكّة

فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن، ومُكّس الناس تمكيساً غير مستقصى والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصوريّة على الرأس، ولا اعتراض على التجّار فيه لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون وهو محلّ التعشير، والضريبة فيه قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً. وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين وذلك لمقدّمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم سببها أن طائفة من أنجادهم غزَتْ مع نور الدين رحمه الله أحدَ الحصون فكان لهم في أخذه غناءٌ ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسيّة ألزموها رؤوسهم، فكلُّ مغربيّ يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم. وقال الإفرنج إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئاً فلمّا تعرّضوا لحربنا وتألّبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدوّ يسهّله عليهم ويخفّف عنتَه عنهم. ورحلنا من تبنين سحر يوم الاثنين وطريقنا كلّه على ضياع متّصلة وعمائر منتظمة سُكّانها كلّها مسلمون، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة وذلك أنهم يؤدّون لهم نصف الغلّة عند أوان ضمّها وجزية على كلّ رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة ونزلوا في أعلاه وطلب رَحْلُ مَنْ لا سلعة له لئلاّ يحتوي على سلعة مخبوءة فيه وأطلق سبيله فنزل حيث شاء وكلّ ذلك برفق وتُؤَدة دون تعنيف ولا حمل فنزلنا بها في بيت اكتريناه من نضرانيّة بإزاء البحر وسألنا الله تعالى حسن الخلاص وتيسير السلامة.

ذكر مدينة عكّة

هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحطّ الجَوَارِي المُنْشَآتِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلأَعْلَامِ مَرْقا كلّ سفينة، والمشبَّهة في عظمها بالقسطنطينة، مجتمع السفن والرفاق، وملتقَى تجّار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سِكَكها وشوارعها تغصّ بالزحام، وتضيق فيها مواطىء الأقدام، تستعر كفراً وطغياناً، وتفور خنازير وصلباناً زَفرة قَذِرة؛ مملوءة كلّها رجساً وعَذِره، انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين في العشر الأوّل من المائة السادسة فبكى لها الإسلام ملء جفونه، وكانت أحد شجونه فعادت مساجدها كنائس، وصوامُعها مضاربَ للنواقس، وطهّر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بأيدي المسلمين مسجداً صغيراً يجتمع الغرباء منهم فيه لإقامة فريضة الصلاة. يؤدّونها أيضاً ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم وكلّ ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل رساتيقُها كلّها للمسلمين، وهي القرى والضياع وقد أُشْرِبت الفتنَةَ قلوبُ أكثرهم لِما يُبْصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعُمّالهم لأنهم على ضدّ أحوالهم من الترفيه والرفق وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الإسلاميّ جَوْرَ صنفه المالك له ويحمد سيرة ضدّه وعدوّه المالك له من الإفرنج ويأنس بعدله، فإلى الله المشتكى من هذه الحال وحسبُنا تعزيةً وتسليةً ما جاء في الكتاب العزيز ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ﴾ فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكّة على مقدار

فرسخ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدَّم من جهة الإفرنج على من فيها من عُمّارها من المسلمين فأضاف جميع أهل القافلة ضيافةً حفيلة وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متّسعة بمنزله وأنالهم ألواناً من الطعام قدّمها لهم فعمّهم بتكرمته وكنّا فيمن حضر هذه الدعوة وبِتْنا تلك الليلة وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور وهو الثامن عشر لشتنبر مدينةَ عَكَّة وحُمِلنا إلى الديوان وهو خان مُعَدّ لنزول القافلة وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كُتّاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهَّبة الحلى وهم يكتبون بالعربيّة ويتكلَّمون بها، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له، يعرف بالصاحب، لقب وقع عليه لمكانه من الخُطّة وهم يعرفون به كلّ محتشم متعيّن عندهم من غير الجند وكلّ ما يُجْبَى عندهم راجع إلى الضَمَان، وضمان هذا الديوان بمال عظيم، فأنزل التجّار رحالهم به.

3 ـ مجموعة من حِكَمه: (الذيل والتكملة 5/608 ـ 609 والإحاطة 2/237 ـ 239):

1 ـ إن شَرُفَ الإنسان فبفضل وإحسان، وإن فاق فبتفضُّلٍ وإنفاق.

2 ـ ينبغي للإنسان أن يحفظ لسانه، كما يحفظ الجفْن إنسانه، فربَّ كلمة تُقَال، تحدث عثرةً لا تقال.

3 ـ كم كَسَتْ فلتاتُ الألسن الحداد، من وراءها من ملابس الحداد.

4 ـ نحن في زمنٍ لا يحظى فيه بنفاق، إلا مَنْ عاملَ بِنفاق.

5 ـ شُغِلَ الإنسان عن طريق الآخرة بزخارف الأعراض، فلجُّوا في الصدور عنها والإعراض. آثروا دنيا هي أضغاث أحلام، وكم هَفَتْ في حبها من أحلام. أطالوا فيها آمالهم، وقصّروا أعمالهم، ما بالهم، لم يتفرغ لغيرها بالهم. ما لهم في غير ميدانها استنان، ولا بسوى هواها استنان. تالله لو كُشفت الأسرار، لما كان هذا الإصرار، ولسهرت العيون، وتفجرت من شؤونها العيون. فلو أن عين البصيرة من سنتها هابة، لرأتْ أن جميع ما في الدنيا ريح هابّة. ولكن استولى العمى على البصائر، ولا يعلم المرءُ ما هو إليه صائر. أسأل الله هداية لسبيله، ورحمةً تورد في تسنيم الفردوس وسلسبيله، إنه الحنان المنان، لا ربّ سواه.

6 ـ فَلَتَاتُ الهبات، أشبه شيء بفلتات الشهوات، منها نافع لا

يُعْقِبُ ندماً، ومنها ضارٌّ يبقي في النفس ألماً. فضرر الهبة وقوعها عند من لا يعتقد لحقِّها أداء، وربما أثمرت عنده اعتداء. وضرر الشهوة ألا توافق ابتداء، فتعود لمستعملها داء. ومثلها كمثل السكر يلتذ صاحبه بحلو جَناه، فإذا صحا تعرَّفَ قدر ما جناه. ومنفعتها بعكس هذه القضية، وهي الحالة المرضية. فالأسلم للمرء أن يأتي أمره على بصيرةٍ من رشده، مستوضحاً فيه سبيل قصده. وما التوفيق إلا بالله، وما الخير إلا من عند الله، لا إله إلاّ هو.

الفهارس العامة

- فهرس الأماكن
- فهرس القوافي

1 ـ فهرس الأماكن

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ث ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

2 ـ فهرس قوافي الشعر

القافية	البحر	الصفحة	عدد الأبيات
	قافية الحاء		
يستبحْ	المتقارب	76 ـ 77	3
ربحا	الخفيف	76	2
الجوارحُ	الطويل	77	3
ناصحُ	الطويل	27 ـ 28	2
	قافية الدال		
فؤادْ	السريع	80	7
النجادْ	المتقارب	79	4
بالنجادْ	المتقارب	79 ـ 80	5
اجتهادَه	البسيط	81	2
زادا	مخلّع البسيط	81 ـ 82	4
عادا	المنسرح	82	4
عودُ	الطويل	41 ـ 43	17
شواهدُ	الكامل	78	3
إسعادُه	السريع	78	3
جدُّكْ	مخلّع البسيط	114	2
بشهدِهِ	الطويل	39 ـ 40	11
وفودِ	الطويل	121	1
والفسادِ	مخلّع البسيط	107	4
الحداد	الوافر	40 ـ 41	7
لم يغمدِ	الكامل	83	2
زندي	السريع	81	3

القافية	البحر	الصفحة	عدد الأبيات

قافية العين

قافية الفاء

قافية القاف

قافية الكاف

القافية	البحر	الصفحة	عدد الأبيات
	قافية الهاء		
فئهْ	البسيط	110	2
أمضيهْ	مخلّع البسيط	114 ـ 115	10
للوديعهْ	الوافر	89	2
بالسفهْ	السريع	108	2
الشريعهْ	المنسرح	108	2
المزاح مهْ	مجزوء الخفيف	98	2
منطقيهْ	—	109	4
عليها	مجزوء الرمل	102	2
إليها	الخفيف	101	3
أشبهُ	الطويل	103	2
أهواهُ	الكامل	69	7
عليهِ	مخلّع البسيط	96 ـ 97	6
إليهِ	المتقارب	102	2
عليهِ	المتقارب	103	2
	قافية الياء		
تلاقيا	الطويل	122	1



بيروت - لبنان
لصاحبها : الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود
تلفون: 009611-350331 Tel: 009611-350331 / خليوي: 009613-638535 Cellulaire: 009613-638535
فاكس: 009611-742587 Fax: 009611-742587 / ص.ب. 113-5787 بيروت ، لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الرقم: 387 / 1000 / 2 / 2001

التنضيد : كومبيوتايب - بيروت

الطباعة : دار صادر ، ص . ب . 10 - بيروت

IHSAN ABBAS

IBN DJUBAYR OF VALENCIA THE TRAVELLER

His Life And Works



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

IHSAN ABBAS

IBN DJUBAYR OF VALENCIA THE TRAVELLER

His Life And Works





DAR AL-GHARB AL-ISLAMI